



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى الله عليه وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مختصر

تحيات

أمر المؤمنين خديجة

عليها السلام

دار الفکر

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام

كاتب:

محمود شلبي

نشرت في الطباعة:

دار الجيل

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
7	حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام
7	هوية الكتاب
7	اشاره
11	مقدمة
15	هذه .. هي خديجة؟!
39	الخطوط العريضة .. من حياة أم المؤمنين .. 1- ماذا قبل البعثة؟!
63	الخطوط العريضة .. من حياة أم المؤمنين .. 2- البعثة؟!
121	نبيان عظيمان .. في زواجهما .. بتشابهان؟!
135	كيف تمَّ .. الزواج .. المبارك؟!
151	خمس عشرة سنة .. في ظلال حياة .. زوجية سعيدة؟!
161	خديجة .. عليها السلام .. في أعظم .. لحظة في حياتها؟!
177	ثورة .. قريش .. المضادة؟!
183	عندما قالت خديجة .. لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. اني لأرجو أن تكون .. نبي هذه الأمة؟!
205	خديجة .. أول من توضعاً .. و أول من صلى؟!
213	اهل البيت الكريم .. يؤمنون تبعاً .. بعد خديجة .. عليها السلام ..؟!
223	أم المؤمنين .. خديجة عليها السلام .. في قلب الأحداث؟!
231	خديجة عليها السلام .. تشهد هجرة رُقيّة .. مع زوجها عثمان .. إلى الحبشة؟!
239	خديجة .. عليها السلام .. صامدة في المقاطعة و الحصار .. بجوار زوجها العظيم صلى الله عليه وسلم؟!
269	هل شهدت .. خديجة عليها السلام .. معجزة الاسراء و المعراج؟!
309	وفاة .. ابي طالب؟!
325	وفاة .. ام المؤمنين خديجة .. عليها السلام؟!
333	شخصية خديجة .. عليها السلام؟!

حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام

هوية الكتاب

محمود شلبي

حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام

دارالجيل

بيروت - لبنان

ص: 1

اشاره

محمود شلبي

حياة أم المؤمنين خديجة عليها السلام

دارالجيل

بيروت

ص: 3

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ..

و الصلاة والسلام على خاتم النبيين ..

وبعد ..

هذه «حياة أم المؤمنين خديجة»، رضي الله عنها وأرضاها ..

أول من آمن على الإطلاق ..

وأفضل نساء النبي .. صلى الله عليه وسلم.

و أم فاطمة الزهراء ، عليها السلام ..

و أم المؤمنين بعد ذلك !!

أنعم الله عليّ بشرف الكتابة عنها ..

ص: 5

بعد أن كتبت «حياة مريم» .. و «حياة فاطمة» . و «حياة اسية» .. لتتم دائرة الكاملات. الوارد ذكرهنّ في قوله .. صلّى الله عليه وسلم:

«حسبك من نساء العالمين ..

«مريم ابنة عمران ..

«و خديجة بنت خويلد ..

«و فاطمة بنت محمد ..

«و اسية امرأة فرعون.»

و ها هي حياتها الشريفة .. تتلأأ أمام عينيك ..

اللهم .. صلِّ .. وسلِّم .. وبارك .. على محمّد .. وعلى أزواجه الأطهار!!

1408 هـ

1988 م

محمود شلبي

ص: 7

هذه .. هي خديجة!؟

ص: 9

حسبك من نساء العالمين؟!

«عن أنس رضي الله عنه ..

«أن النبي .. صَلَّى الله عليه وسلم .. قال:

«حسبك من نساء العالمين ..

«مريم ابنة عمران ..

«و خديجة بنت خويلد ..

«وفاطمة بنت محمد ..

«و آسية امرأة فرعون.»

[أخرجه الترمذي]

ص: 11

خير نسائها؟!!

«عن عليّ ..

«سمعت رسول الله .. صلّى الله عليه و سلم .. يقول:

«خير نسائها مريم بنت عمران ..

«و خير نسائها خديجة بنت خويلد.»» ..

[أخرجه مسلم]

ص: 12

خَيْرُ نَسَائِهَا خَدِيجَةٌ!؟

«عن عليٍّ .. رضي الله عنه ...»

«عن النبيِّ .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. قال:

«خيرُ نَسَائِهَا مَرْيَمُ ..»

«و خيرُ نَسَائِهَا خَدِيجَةٌ.»»

[أخرجه البخاري]

ص: 13

ما غرّتُ على امرأةٍ .. ما غرّتُ على خديجةَ؟!!

«عن عائشة .. رضي الله عنها .. قالت :

«ما غرّتُ على امرأةٍ .. ما غرّتُ على خديجةَ ..

«من كثرة ذكر رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. اياها ..

«قالت : و تزوّجني بعدها بثلاث سنين ..

«وأمره ربّه عزّ وجلّ ..

«أوجبريل .. عليه السلام ..

«أن يُسّرّها بيّتٍ في الجنّة من قصَبٍ.»

[أخرجه البخاري]

ص: 14

كأنه لم يكن في الدنيا .. امرأة إلا خديجة؟!!

«عن عائشة رضي الله عنها .. قالت:

«ما غرّت على أحدٍ من نساء النبي .. صلّى الله عليه وسلم .. ما غرّت على خديجة ..

«و ما رأيتها ..

«و لكنّ كان النبي .. صلّى الله عليه وسلم .. يُكثرُ ذكْرَها ..

«و رُبما ذبَحَ الشاة .. ثم يقطعُها أعضاء ..

«ثم يبعثُها في صدائقِ خديجة ..

«فربما قلتُ له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ..

فيقول: إنها كانت و كانت .. و كان لي منها ولد ..

[الخرجه البخاري]

ص: 15

هل بشر النبي .. صَلَّى الله عليه وسلم .. خديجة؟!

«عن اسماعيلَ قال:

«قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى .. رضي الله عنهما: بشرَ النبيَّ .. صَلَّى الله عليه وسلم .. خديجة؟

«قال: نعم. بيتٌ من قَصَبٍ(1).. لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ.»

[اخرجہ البخاري]

ص: 16

1- قال جمهور العلماء: المراد به قصب اللؤلؤ الجوف كالقصر المنيف .. وقيل: قصب من ذهب منظوم بالجوهر. قال أهل اللغة: القصب من الجوهر ما استطال منه في تجويف .. ويقال لكل مجوف قصب .. والمراد بالبيت هنا القصر!

جبريل .. عليه السلام .. يقول :

فاقرأ عليها السلام .. من ربِّها .. ومني ؟

« عن أبي هريرة .. رضي الله عنه .. قال

« أتى جبريلُ .. النبيَّ .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. فقال

« يا رسولَ اللهِ .. هذه خديجةٌ .. قد أتتْ معها إناءٌ فيه إدامٌ .. او طعامٌ .. او شرابٌ ..

« فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام ..

« من ربِّها ..

« ومني ..

« وَبَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ .. مِنْ قَصَبٍ .. لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ .. »

[أخرجه البخاري]

ص: 17

«قد أتتك» أي توجهت إليك ..

«فيه إدام أو طعام أو شراب»، شك من الراوي ..

«فاقرأ عليها السلام» أي سلّم عليها من ربها و مني .. فإن قلت: كيف ردّت الجواب؟

«قلت: بيّن ذلك الطبراني في روايته

«فقلت: هو السلام .. ومنه السلام .. وعلى جبريل السلام» !!

قلت: وعليها السلام؟

ص: 18

خديجة تقول:

و عليك يا رسول الله السلام!؟

«و للنسائي - من رواية أنس - قال:

«قال جبريل للنبي .. صَلَّى الله عليه و سلم: إن الله يقريء خديجة السلام ..

«يعني: فأخبرها ..

«فقلت: إن الله هو السلام ..

: و علي جبريل السلام ..

: و عليك يا رسول الله السلام .. و رحمة الله و بركاته ..

«و في رواية ابن السني زيادة و هي قولها:

و علي من سمع السلام .. إلا الشيطان ..

«فإن قلت: لَمَا رَدَّت الجواب بما ذكرنا .. هل كان جبريل عليه السلام حاضراً؟

ص: 19

«قلت: بلى .. كان حاضراً ..»

«فردت عليه .. وردت على النبي .. صلى الله تعالى عليه وسلم .. مرتين .. ثم أخرجت الشيطان ممن سمع لأنه لا يستحق الدعاء بذلك.»

[شرح البخاري]

عليها السلام !!

ص: 20

عائشة قالت عنها؟

«عن عائشة قالت

«بشّر رسولُ الله .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. خديجةَ بنتَ خُوَيْلِدٍ ..

«ببيتٍ في الجنةِ .

[أخرجه مسلم]

أي : بيت من قصب .. أي من اللؤلؤ المجوف .. أو قصب من ذهب منظوم بالجواهر!

ص: 21

إني قد رزقتُ حبَّها!؟

«عن عائشةَ قالت: ما غرَّتْ على نساءِ النبيِّ .. صلَّى الله عليه وسلم .. إلا على خديجة ..

«وإني لم أدركُها ..

«قالت: وكان رسولُ الله .. صلَّى الله عليه وسلم .. إذا ذبح الشاةَ فيقول: أرسلوا بها إلى اصديقاءِ خديجة ..

«قالت: فأغضبتهُ يوماً .. فقلتُ: خديجة ..

«فقال رسولُ الله .. صلَّى الله عليه وسلم:

«إني قد رزقتُ حبَّها.»

[أخرجه مسلم]

ص: 22

لم يتزوّج على خديجةَ حتى ماتت؟!!

«عن عائشة قالت:

«لم يتزوّج النبيّ .. صلّى الله وسلم .. على خديجةَ .. حتى ماتت.»

[أخرجه مسلم]

ص: 23

عندما استأذنت أخت خديجة ..

على رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم؟!

«عن عائشة قالت:

استأذنتُ هالةَ بنتِ خويلدٍ .. أختُ خديجةَ .. علي رسولِ اللهِ .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

«فعرَفَ استئذانَ خديجةَ .. فارتاحَ لذلك ..

«فقالَ: اللهمَّ هالةُ بنتُ خويلدٍ

«فغرِرتُ .. فقلتُ: و ما تُذكرُ من عجوزٍ من عجائزِ قريشٍ .. حمراءِ الشُّدْقَيْنِ .. هَلَكْتُ في الدهرِ .. فأبدَلَك اللهُ خيراً منها.»

[أخرجه مسلم]

«فارتاحَ لذلك» أي هسَّ لمجيئها و سرَّ بها .. لتذكره بها خديجة و أيامها ..

ص: 24

«وفي هذا كله دليل لحسن العهد .. و حفظ الود .. ورعاية حرمة الصاحب و العشير في حياته و وفاته .. و اكرام أهل ذلك الصاحب ..

«حمراء الشدقين» معناه عجوز كبيرة جداً .. حتى سقطت أسنانها من الكبر، و لم يبق لشدقها بياض شيء من الأسنان .. إنما بقي فيه حمرة لثاتها ..

«قال العلماء: الغيرة مسامح للنساء فيها .. لا عقوبة عليهن فيها .. لما جبلن عليه من ذلك .. ولهذا لم تزجر عائشة عنها ..

«قال القاضي: وعندي أن ذلك جرى من عائشة لصغر سنها و أول شبيبتهها ..»

ص: 25

بشّرها؟!

«عن عائشة قالت:

«ما حسدتُ أحداً .. ما حسدتُ خديجةً ..

«و ما تزوّجني رسولُ الله .. صلّى الله عليه وسلم .. إلا بعدَ ما ماتتُ ..

«و ذلكَ أنّ رسولَ الله .. صلّى الله عليه وسلم .. بشّرها بيّنتَ في الجنّة .. من قصَبٍ .. لا صحَبَ فيه ولا نصَبَ.»

[أخرجه الترمذي]

و «قال: هذا حديث حسنٌ ..

«من قصَبٍ .. قال: إنما يعني به قصَب اللؤلؤ» ..

ص: 26

وقال ابن العربي:

«كان النبي عليه السلام .. قد انتفع بخديجة .. برأيها و مالها و نصرها .. فرعاها حية و ميتة .. وبرَّها موجودة و معدومة .. و أتى بعد موتها ما كان يعلم أنه يسرها لو كان في حياتها ..

«وقد بشرها النبي عليه السلام بيث في الجنة من قصب لا صخب فيه و لا نصب .. معناه عار عن الأذية .. و يريد به قصب اللؤلؤ .. مركباً عن الذهب و الفضة ..

«وهي أفضل نساء الأمة .. من غير خلاف ..» !!

ص: 27

خَيْرُ نَسَائِهَا خَدِيجَةٌ؟!!

«عن عبد الله بن جعفر قال:

«سمعتُ عليَّ بنَ ابي طالبٍ يقولُ:

«سمعتُ رسولَ اللهِ .. صَلَّى اللهُ عليه و سلم .. يقولُ:

«خَيْرُ نَسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ..

«و خَيْرُ نَسَائِهَا مَرِيَمُ ابْنَتُ عِمْرَانَ.»

[أخرجه الترمذي]

وقال: «وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

وقال ابن العربي:

«خير نساء قريش خديجة .. وبعدها فاطمة .. وعائشة!!

ص: 28

آمنتُ بي إذ كفر الناس؟!

«عن عائشة:

«كان رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة .. فيحسن الثناء عليها ..

«فأدرکتني الغيرة فقلت: و هل كانت إلا امرأة عجزواً .. فقد أبدلك الله خيراً منها؟.

«فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب .. ثم قال:

« لا .. والله ما أبدلني الله خيراً منها .. آمنتُ بي إذ كفر الناس .. و صدقتني إذ كذبتني الناس .. و واستنى في مالها إذ حرمني الناس .. و رزقني منها الولد إذ حرمني اولاد النساء ..

«فقالت عائشة: فقلت في نفسي: لا اذكرها بسيئة أبدا.»

[ابن عبد البر: الاستيعاب: ترجمة خديجة .. و كذلك ابن حجر في الإصابة .. و السمط الثمين.]

ص: 29

أفضل نساء أهل الجنة!؟

وأخرج أحمد .. وأبو حاتم .. رواية أبي هريرة ... عن رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. أنه قال:

«أفضل نساء أهل الجنة ..

«خديجة بنت خويلد ..

«وفاطمة بنت محمد ..

«ومريم ابنة عمران ..

«وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون.»

[الوفا بأحوال المصطفى]

ص: 30

سيدة نساء العالمين؟

وروى ابن عباس ..

أن رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. قال:

«سيدة نساء العالمين ..

»(مريم ..

»ثم فاطمة ..

»ثم خديجة ..

»ثم آسية ..«!!

[محب الدين الطبري .. السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين .]

وبعد .. كانت هذه بعض مناقب .. أم المؤمنين .. خديجة بنت خويلد .. عليها السلام !!

ص: 31

الخطوط العريضة .. من حياة أم المؤمنين .. 1- ماذا قبل البعثة!؟!

ص: 33

متى ولد؟

يوم الاثنين .. من شهر ربيع الاول .. في الثاني عشر من ذلك الشهر.

وضعته أشرف عقيلة في قريش، آمنة بنت وهب.

وضعته يتيماً!

لقد توفي أبوه، عبدالله بن عبد المطلب، وهو جنين في بطن أمه !!

ذلك أن عبدالله خرج إلى الشام، إلى غزة، في غير من غيران قريش، يحملونه تجارات، ففرغوا من تجارتهم، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة .. و عبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض. فقال: أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار. فأقام عندهم مريضاً شهراً.

ص: 35

و مضى أصحابه، فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني النجار، وهو مريض.

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده، الحارث، فوجده قد توفي و دفن في دار النابغة.

فرجع إلى أبيه فأخبره، فحزن عليه عبد المطلب و إخوته و أخواته حزناً شديداً، و رسول الله صَلَّى الله عليه و سلمّ يومئذ جنين، و لعبد الله ابن عبد المطلب يوم توفي خمس و عشرون سنة.

لقد توفي أبوه و هو جنين في بطن أمه .. و هذا أبلغ اليتيم و أعلى مراتبه.

و كان ذلك أول بلاء يواجهه الطفل الوليد .. و إن كان لا يدري شيئاً عن تلك المعاني .. إلا أن المقادير كانت تدري، و كانت تؤهله لأمر عظيم!

و ألهمهم الله عز و جل أن سموه محمداً .. ليلتقي الاسم و الفعل، و يتطابق الاسم و المسمى، في الصورة و المعنى.

و شق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود و هذا محمد

من لليتيم؟

عن حليلة بنت الحارث أنها قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد نلتمس بها الرضعاء، في سنة شهباء، فقدمت على أتان لي قمراء كانت أذمت (1) بالركب، ومعى صبي لنا، وشارف لنا، والله ما تبض بقطرة، و ما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم، ضعفاً وعجفاً، فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتاباه، إذا قيل إنه يتيم تركناه. قلنا ماذا عسى ان تصنع الينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى ان تصنع إلينا؟

فوالله ما بقي من صواحي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري،

ص: 37

1- أي: جاءت بما تدم عليه.

فلما لم نجد غيره، و أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى، و الله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاآخذنه.

فقال: لا عليك أن تفعلي، فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً.

فذهبت، فاخذته، فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته، فجنّت به رَحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن! فشرب حتى روي، و شرب أخوه حتى روي!

وقام صاحبي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب، و شربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة ..

فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليلة .. و الله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير و البركة حين أخذناه؟

فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحيبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب، هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم، والله إنها لهي فقلن: والله إن لها لشأناً.

ص: 38

حتى قدمنا أرض بني سعد، و ما أعلم أرضاً من ارض الله أجذب منها، فإن كانت غنمي لتسرح، ثم تروح شباعاً لبناً، فتحلب ما شئنا، و ما حوالينا أو حولنا احد تبض له شاة بقطرة لبن؛ و إن اغنامهم لتروح جياًعاً ..

حتى إنهم ليقولون لرعاتهم: ويحكم، أنظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب، فاسرحوا معهم.

فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياًعاً ما فيها قطرة لبن! و تروح أغنامي شباعاً لبناً، نجلب ما شئنا.

فلم يزل الله يرينا البركة يتعرفها حتى بلغ سنتين، فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً يقوى على الأكل.

فقدمنا به على أمه، و نحن أضن شيء به، مما رأينا فيه من البركة. فلما رأته أمه، قلت لها: دعينا نرجع بإبننا هذه السنة الأخرى، فإننا نخشى عليه وباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم ..

ص: 39

عودة الطفل الى أمه

وعادت حليلة بالصبي حيث كانت تقيم .. ثم اعادته إلى أمه بعد شهرين أو ثلاثة ..

فكان رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم مع أمه آمنة بنت وهب، و جدّه عبد المطلب في كلاءة الله و حفظه، ينبته الله نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته.

ولكن الأم تموت !

فلما بلغ ست سنين ..

ماذا حدث لليتيم الصغير؟

قدمت آمنة بنت وهب به على أخواله من بني النجار بالمدينة، تزيه إياهم ..

ثم ماذا؟

ص: 40

ثم ماتت أمه وهي راجعة به إلى مكة، ماتت بالأبواء.

وتوفيت أمه آمنة بنت وهب، وهو ابن ست سنين!

وصار الصبي اليتيم لطيماً.. فاقداً لأبويه!

عبد المطلب يكفله

وكان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم، بعد موت أمه آمنة بنت وهب.

فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له.

فكان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يأتي، وهو غلام قوي، حتى يجلس عليه.

فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا إني فوالله إن له لشأناً.

ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

ص: 41

ورق عبد المطلب عليه رقة لم يرقها على ولده!

وكان يقربه منه، و يدنيه، و يدخل عليه إذا خلا، و إذا نام.

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة، أوصى أبو طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه و سلم، و حياطته.

ثم مات عبد المطلب، و دفن بالحجون.

و كان صلى الله عليه و سلم وقتئذ ابن ثمان سنين.

أبو طالب يكفله

فلما توفي عبد المطلب، قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه و سلم، فكان يكون معه.

و كان أبو طالب لا مال له، و كان يحبه حباً شديداً، لا يحبه ولده!

و كان لا ينام إلا إلى جنبه!

و يخرج فيخرج معه.

ص: 42

و كذلك جعل الله حب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم شيئاً في شغاف قلوبهم، و التقى عليه محبة منه، فما رآه عبد المطلب إلا أحبه، و ما رآه أبو طالب من بعده إلا أحبه حباً شديداً.

بحيري الراهب

ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام.

فلما تهيأ للرحيل، و أجمع المسير، صَبَّ به (1) رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فرق له، و قال أبو طالب: والله لأخرجن به معي، و لا يفارقني و لا أفارقه أبداً.

فخرج به معه، فلما نزل الركب بصْرَى من أرض الشام، و بها راهب يقال له بحيري في صومعة له، و كان اليه علم أهل النصرانية، و لم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب اليه، يصير علمهم عن كتاب فيها، يتوارثونه كابراً عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببخيري، و كانوا كثيراً ما يمرون به قبل

ص: 43

1- صب به: اشتد ميله اليه، و رق قلبه له.

ذلك، فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك -فيما يزعمون- عن شيء رآه وهو في صومعته: يزعمون أنه رأى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم وهو في صومعته في الركب، حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم.

ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، و تهصَّرت (1) أغصان الشجرة على رسول صَلَّى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها.

فلما رأى ذلك بحيري نزل من صومعته، ثم أرسل اليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحصُّروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم.

قال له رجل منهم: والله، يا بحيري، إن لك لشأناً اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً!! فما شأنك اليوم؟

قال له بحيري: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضئيفٌ وقد أحببت أن أكرمكم واصنع لكم طعاماً فتاكلون منه كلكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم من بين القوم،

ص: 44

1- تهصرت: مالت وتدلّت.

لحدائثة سنه، وقد كان لرسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يومئذ من العمر اثنتا عشرة سنة، تخَلَّفَ في رحال القوم تحت الشجرة.

فلما نظر بحيري في القوم و لم ير الصفة التي يعرف و يجد عنده قال: يا معشر قريش، لا يتخَلَّفَنَّ احد منكم عن طعامي.

قالوا له: يا بحيري، ما تخلف عنك احدٌ ينبغي له ان يأتيك إلا غلاماً و هو أحدث القوم سنّاً، فتخلف في رحالهم.

فقال: لا تفعلوا، أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش مع القوم: واللات و العزى إن كان لَلُّومُ بنا أن يتخلف ابن عبدالله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام اليه فاحتضنه و اجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيري جعل يلحظه لحظاً شديداً، و ينظر إلى اشياء من جسده، و قد كان يجدها عنده من صفته.

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم و تفرقوا، قام اليه بحيري فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات و العزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟

و إنما قال له بحيري ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما.

فزعموا أن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم قال: «لا تسألني باللات و العزى شيئاً، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا».

فقال بحيري: فبالله إلا ما اخبرتني عما أسألك عنه؟

فقال له: «سلني عما بدا لك».

فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه، و هيئته، و أموره.

فجعل رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيري من صفته.

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ اقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟

قال: إبني.

فقال له بحيري: ما هو بابنك، و ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً.

قال: فإنه ابن اخي.

قال: فما فعل أبوه؟

قال: مات و أمه حُبلى به.

قال: صدقت .. فارجع بابن أخيك إلى بلده، و احذر عليه يهود، فوالله لئن رَأَوْهُ و عرفوا ما عرفت لَيَبِغُنَّهُ شراً .. فإنه

ص: 46

كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فاسرع به إلى بلاده.

فخرج به عمه ابو طالب سريعاً، حتى اقدمه مكة، حين فرغ من تجارته بالشام.

الامين

ولقد شب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه ويحفظه ويحوطه من اقدار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكزماً، حتى ما اسمه في قومه إلا- «الأمين»، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

يشهد حرب الفجار

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة، هاجت حرب الفجار

ص: 47

بين قريش و من معها من كنانة، و بين قيس عيلان.

و كان الذي هاجها أن عروة أجار لطيمة(1) للنعمان بن المنذر.

فقال له البرّاض بن قيس: أتجيرها على كنانة؟

قال: نعم .. و على الخلق كله.

فخرج فيها عروة، و خرج البراض يطلب غفلته، حتى إذا كان بالعالية غفل عروة، فوثب عليه البرّاض، فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سمي الفجار، لأنه كان قتالاً في الشهر الحرام، ففجروا فيه جميعاً.

فأتي آت قريشا فقال: إن البرّاض قد قتل عروة، و هم في الشهر الحرام بعكاظ.

فارتحلوا و هوازن لا- تشعب بهم، ثم بلغهم الخبر، فأتبعوهم، فأدركوهم قبل ان يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، و دخلوا الحرم، فامسكت عنهم هوازن.

ثم التقوا بعد هذا اليوم اياماً، و القوم متساندون -أي ليس لهم أمير واحد يجمعهم- على كل قبيل من قريش و كنانة رئيس

ص: 48

1- اللطيمة: الجمال التي تحمل المسك. و إجارتها: أن يكون لها جاراً فيمنع التعدي عليها.

منهم، وعلی کل قبیل من قیس رئیس منهم.

وشهد رسول الله صلّى الله عليه و سلم بعض أيامهم، أخرجهم أعمامهم معهم.

وقال رسول الله صلّى الله عليه و سلم:

«كنت أنبل على أعمامي، ..

أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

يتزوج

فلما بلغ رسول الله صلّى الله عليه و سلم خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد.

وكانت خديجة امرأة تاجرة، ذات شرف و مال، تستأجر الرجال في مالها، و تضاربهم إياه بشيء تجعله لهم.

وكان قريش قوماً تجاراً.

فلما بلغها عن رسول الله صلّى الله عليه و سلم ما بلغها، من صدق حديثه، و عظم أمانته، و كرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن

ص: 49

يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، و تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له مَيْسِرَةٌ، فقبله رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم منها، و خرج في مالها ذلك، و خرج معه غلامها مَيْسِرَةٌ، حتى قدم الشام.

ثم باع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، و اشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة و معه ميسرة.

و حدثها ميسرة عن شمائله و مكارمه.

و كانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة.

فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به، بعثت إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم فقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبتُ فيك، لقرابتك، و شرفك في قومك، و أمانتك، و حسن خلقك، و صدق حديثك.

ثم عرضت عليه نفسها.

و كانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، و أعظمن شرفاً، و أكثرهن مالاً.

كلُّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه.

فلما قالت ذلك لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن اسد، فخطبها اليه، فتزوجها.

وأصدقها رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عشرين بكرة.

وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ولم يتزوج عليها غيرها، حتى مات رضي الله عنها.

فولدت لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ولد، كلهم إلا إبراهيم.

ولدت له القاسم، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وأكبر بنيه القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن، وهاجرن معه صَلَّى الله عليه وسلم.

وأما إبراهيم فأمه مارية، التي أهداها إليه المقوقس صاحب إسكندرية.

وكان عمر خديجة حين تزوجها رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم خمسة وثلاثين سنة، وقيل خمساً وعشرين سنة.

ص: 51

فلما بلغ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم خمساً و ثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة.

فلما تم لهم هدمها، جمعت القبائل من قريش الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، فاختصموا فيه.

كل قبيلة تريد ان ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا و تحالفوا، و أعدوا القتال.

فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد و تشاوروا، و تناصفوا.

فقال أبو أمية بن المغيرة، و كان عامئذ أسنَّ قريش كلها: يا معشر قريش اجعلوا بينكم، فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه .. ففعلوا.

فكان اول داخل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم.

فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فلما انتهى اليه اخبروه الخبر.

فقال صَلَّى الله عليه وسلم: «هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا، فَأَتَى بِهِ، فَأَخَذَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَتَأْخُذُ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ أَرْفَعُوهُ جَمِيعًا، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ.

وكانت قريش تسمي رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم قبل ان ينزل عليه الوحي «الأمين».

وهكذا كانت حياته صَلَّى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله إلى الناس كافة.

حياة هادئة صافية.

فهو ابن الصحراء، نشأ فيها أصولاً وفروعاً.

والصحراء تطبيع أهلها بالصفاء، وتغرس في أبنائها حب الحرية، وحب الشجاعة، وحب الكرم، وحب السخاء.

هذا من ناحية البيئة التي نشأ فيها.

أما عن السلالة فهو ابن خليل الله، ابن إسماعيل ذبيح الله،

ص: 53

ابن قريش سادة العرب، ابن بني هاشم سادة قريش.

ومتى اجتمع للانسان كرم الأصول، وكرم المنبت، فهو الشجرة الطيبة في الأرض الطيبة.

ولقد كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم قبل بعثته، يُصنع صناعة خاصة على عين ربه عز وجل.

فما من شيء يؤدي إلى جماله وكماله إلا أخذ به ربه اليه.

وما من شيء يقربه من الإنسانية، ويباعده من الكبر والجبروت إلا سلك الله به اليه سبيلاً.

هذا ابوه يموت وهو جنين في بطن امه.

ثم هذه أمه تموت وهو ابن ست سنين.

فيجتمع عليه من فقدته وموتها يتمان أليمان.

والنفس إذ تحزن تفكر ويتعمق تفكيرها، فتتهدي من حزنها إلى حقائق كانت عنها لاهية.

ليس هذا وحده، وإنما هناك بعد ذلك موت جده عبد المطلب .. فما بلغ صَلَّى الله عليه وسلم ثماني سنين حتى ذهب عبد المطلب إلى

ربه. ففقد محمد صَلَّى الله عليه وسلم بموته جداراً ضخماً كان يستند بظهره اليه.

ولم يقف البلاء برسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عند ذلك، وإنما ساقه القدر إلى

كفالة عمه أبي طالب الرجل الفقير ذي العيال!

فتألم صلّى الله عليه وسلم، وتعلم، ولكنه لم يتكلم.

تعلم أن في الحياة آلاماً لا يحترق بنارها إلا من اصطلاها وعانها.

وأن فيها ظروفها هي أشق على النفس من لقاء الموت.

ولقد كان لزاماً، وحتماً مقضياً، أن يمر محمد صلّى الله عليه وسلم بتلك التجارب.

وكان ذلك هو التمهيد لبناء إنسانيته الأولى قبل النبوة.

ص: 55

الخطوط العريضة .. من حياة أم المؤمنين .. 2- البعثة؟!!

ص: 57

فلما بلغ محمد رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، و كافة للناس بشيراً.
و كان الله تبارك و تعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، و التصديق له، و النصر له على من خالفه.
و أخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم و صدقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه.

يقول الله تعالى لمحمد صَلَّى الله عليه و على آله و سلم:

«و إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَ أَخَذْتُمْ
عَلَيَّ ذَلِكَمْ إِيصْرِي»

أي: ثقل ما حملتكم من عهدي ..

«و قالوا أقرضنا، قال فاشهدوا و أنا معكم من الشّاهدين».

(آل عمران: 81)

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له، و النصر له ممن

ص: 59

خالفه، و أدوا ذلك إلى من آمن بهم و صدقهم من أهل هذين الكتابين.

بدء الوحي

كان أول ما بدأ به رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم من النبوة، الرؤيا الصادقة.

لا يري رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح.

و حَبَّبَ الله تعالى اليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب اليه من أن يخلو وحده.

و كان إذا خرج لحاجة أبعده حتى تبعد عنه البيوت، و يفضي إلى المواضع الخفية بين جبال مكة، و بطون أوديتها، فلا يمر رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بحجر و لا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

فيلتفت رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم حوله، و عن يمينه، و شماله، و خلفه، فلا يرى إلا الشجر و الحجارة.

ص: 60

فمكث رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم كذلك يرى و يسمع، ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله، و هو بحراء في شهر رمضان.

و كان رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يعتكف في حراء من كل سنة شهراً.

و كان ذلك مما تتعبد به قريش في الجاهلية.

فكان رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يعتكف ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين.

فإذا قضى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به -إذا ما انصرف من معتكفه- الكعبة، قبل أن يدخل بيته.

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، و ذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إلى حراء، كما كان يخرج لمعتكفه ..

حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، و رحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى.

قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم:

فجاءني جبريل وأنا نائم بنمطٍ من ديباجٍ فيه كتابٌ؛ فقال: اقرأ، قال: قلت: ما اقرأ، قال: فغَتَّي (1) به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: قلت: ما اقرأ؟، قال فغَتَّي به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ - ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعودَ لي بمثلِ ما صنع بي فقال:

«اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علقٍ * اقرأ وربك الاكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الانسان ما لم يعلم» (العلق: 1 - 5)

قال فقرأتها، ثم انتهي فانصرف عني ..

وهبيت من نومي فكانما كتبتُ في قلبي كتاباً، قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسطٍ من الجبلِ سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسولُ الله، وانا جبريل، قال: فرفعتُ رأسي إلى السماءِ أنظرُ فإذا جبريلُ في صورةِ رجلٍ صافٍ قدميه في

ص: 62

1- غتني: عصرتني عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة، كما يجد من يغمس في الماء قهراً.

أفق السماء، ويقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فوقفتُ انظر اليه، فما اتقدّم و ما أتأخّر، و جعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظرُ في ناحيةٍ منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدمُ أمامي و ما أرجعُ ورائي، حتى بعثت خديجةً رُسِّلها في طلبي فبلغوا أعلى مكةَ ورجعوا اليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، و انصرفت راجعاً إلى اهلي؛ حتى أتيت خديجة؛ فجلست إلى فخذها مضيقاً (1) اليها؛ فقالت: يا ابا القاسم، اين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي!. ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمّ و اثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها؛ ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي و هو ابن عمها؛ و كان ورقة قد تنصّر؛ وقرأ الكتب و سمع من أهل التوراة و الإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلّى الله عليه و سلم انه رأى و سمع.

فقال ورقة بن نوفل: قدوسٌ قدوس؛ و الذي نفس ورقة بيده

ص: 63

1- مضيقاً: ملتصقاً بها مائلاً إليها.

لئن كنتِ صدقتيني يا خديجة؛ لقد جاءه النَّامُوسُ (1) الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولِي له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فأخبرته بقول ورقة ابن نوفل.

وفي رواية البخاري:

.. فرجع بها (2) رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد. فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، و أخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، و تقرى (3) الضيف، و تحمل (4) الكل، و تكسب (5) المعدوم، و تعين على نواب الحق (6) .. فانطلقت به خديجة حتى أتت

ص: 64

1- الناموس: الملك الذي جاءه بالوحي.

2- فرجع بها: بالكلمات التي القاها اليه الملك.

3- تقرى: تكرمه.

4- و تحمل: يعطي الفقير ما يريحه من ثقل تكاليف عياله.

5- و تكسب: تبادر إلى إعطاء الفقير.

6- إذا وقعت نائبة لأحد في خير أعنت فيها، و قمت مع صاحبها حتى يجد قواماً من عيش.

فمضى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم على أمر الله، على ما يلقي من قومه من الخلاف والأذى.

و آمنت به خديجة، و صدقت بما جاءه من الله، و وازرتة على أمره.

و كانت اول من آمن بالله و برسوله و صدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه صَلَّى الله عليه و سلم.

لا يسمع شيئاً مما يكرهه، من رد عليه و تكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع اليها: تثبته و تخفف عليه، و تصدقه، و تهون عليه أمر الناس.

ثم فتر الوحي عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه.

فجاءه جبريل بسورة الضحى، يقسم له ربه - وهو الذي أكرمه بما أكرمه به- ما ودعه ربه و ماقلاه. فقال تعالى: «و الضحى. و الليل إذا سجدى. ما ودعك ربك و ما قلى» يقول: ما صرمك فتركك و ما ابغضك منذ أحبك. «و لآخرة خير لك من الأولى» أي: لما عندي في مرجعك إلى خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا «و لسوف يعطيك ربك فترضى» من الظهور و النصر في الدنيا، و الثواب في الآخرة «ألم يجدك يتيماً فأوى. و جدك ضالاً فهدى. و وجدك عائلاً فأغنى» يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره، و منه عليه في يتمه و فقره و ضلالته و استنقاذه من ذلك كله برحمته «فأما اليتيم فلا تقهر. و أما السائل فلا تنهر» أي: لا تكن جباراً، و لا متكبراً، و لا فحاشاً، فظاً على الضعفاء من عباد الله. «و أما بنعمة ربك فحدث». أي: بما جاءك من الله من نعمته و كرامته من النبوة فحدث، أي: اذكرها و ادع اليها.

(الضحى: 1 - 11)

ص: 66

فجعل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوة سراً، إلى من يطمئن إليه من أهله.

بداية فرض الصلاة

وافترضت عليه الصلاة، فصلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم.

افتترضت الصلاة على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم اول ما افتترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة.

فجاء رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم خديجة فتوضأ لها ليربها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل؛ فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه السلام، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته.

اول من آمن من الصبيان؟

ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صَلَّى الله عليه وسلم وصلى معه

ص: 67

و صدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي طالب.

و هو ابن عشر سنين يومئذ، و كان مما أنعم الله على علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه كان في حجّ رسول الله صلّى الله عليه و سلم قبل الإسلام.

أبو طالب يفاجئهما يصليان!

و يروى أن رسول الله صلّى الله عليه و سلم كان إذا حضرت الصلاة، خرج إلى شعاب مكة، و خرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، و من جميع اعمامه و سائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا.

فمكثا كذلك ما شاء الله ان يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً و هما يصليان فقال لرسول الله صلّى الله عليه و سلم: يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي اراك تدين به؟ قال: «أي عم هذا دين الله، و دين ملائكته، و دين رسله، و دين ابينا إبراهيم».

فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إنني لا استطيع ان افارق دين

ص: 68

آبائي، و ما كانوا عليه، و لكن والله لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت.

وقال ابو طالب لعلي: أي بني؛ ما هذا الدين الذي انت عليه؟

فقال: يا ابت آمنت بالله و برسول الله؛ و صدقت بما جاء به؛ و صليت معه لله، و اتبعته.

فقال له: اما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه.

اسلام زيد بن حارثة

ثم اسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، و كان أول ذكر أسلم و صلى بعد على بن أبي طالب.

اسلام ابي بكر

ثم اسلم أبو بكر بن أبي قحافة.

فلما أسلم أظهر إسلامه، و دعا إلى الله و إلى رسوله، و كان ابو

ص: 69

بكر رجلاً مؤلفاً لقومه، مُحَبِّباً سهلاً و كان انسب قريش لقريش، و اعلم قريش بها و بما كان فيها من خير و شر.

و كان رجلاً تاجراً ذا خلق و معروف.

و كان رجال قومه يأتونه و يألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه، و تجارته و حسن مجالسته.

فجعل يدعو إلى الله و إلى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه و يجلس إليه.

فاسلم بدعائه عثمان بن عفان، و الزبير بن العوام، و عبد الرحمن ابن عوف، و سعد بن أبي وقاص، و طلحة بن عبيد الله.

فجاء بهم إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم حين استجابوا له، فأسلموا و صلوا.

فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالاسلام.

فصلوا و صدقوا رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بما جاءه من الله.

ص: 70

ثم اسلم ابو عبيدة بن الجراح، و أبو سَلَمَةَ، و الأرقم بن أبي الارقم، و عثمان بن مَطْعُون، و أخواه قدامَةُ و عبدالله ابنا مطعون، و عبيدة بن الحرث، و سعيد بن زيد، و امرأته فاطمة بنت الخطاب اخت عمر بن الخطاب، و اسماء بنت ابي بكر، و عائشة بنت ابي بكر، و هي يومئذ صغيرة، و حَبَاب بن الأرتِّ.

و اسلم عُمير بن ابي وقاص، أخو سعد بن ابي وقاص، و عبدالله ابن مسعود، و مسعود بن القاريِّ.

و اسلم سَلِيْط بن عمرو، و اخوه حاطب بن عمرو.

و عياش بن أبي ربيعة، و امرأته اسماء بنت سلامة.

و خُنَيْس بن حذافة، و عامر بن ربيعة.

و عبد الله بن جحش، و اخوه احمد بن جحش.

و جعفر بن ابي طالب، و امرأته اسماء بنت عُمَيْس.

و حاطبُ بن الحرث، و امرأته فاطمة بنت المجلّل، و اخوه حطّاب بن الحرث، و امرأته فُكَيْهَة بنت يسار.

و معمر بن الحرث، و السائب بن عثمان، و المطلب بن ازهر، و امرأته رملة بنت أبي عوف.

و نعيم بن عبدالله، و عامر بن فُهيرة، مولى ابي بكر الصديق رضي الله عنه.

و خالد بن سعيد بن العاص، و امرأته أُمَيَّة بنت خلف.

و حاطب بن عمرو، و ابو حذيفة بن عتبة، و واقد بن عبدالله.

و خالد و عامر و عاقل، بنو البُكير بن عبد ياليل.

و اسلم عمار بن ياسر، و صهيب بن سنان.

ثم دخل الناس في الاسلام ارسالاً⁽¹⁾، من الرجال و النساء، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة و تُحدِّث به.

الجهر بالدعوة

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله الله صَلَّى الله عليه و سلم ان يصدع بما جاءه منه،

ص: 72

1- طائفة بعد طائفة.

و ان يبادي الناس بأمره، و ان يدعو اليه.

و كان بين ما اخفى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم امره و استتر به، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه.

ثم قال الله تعالى له:

«فَاصْدَعْ (1) بما تُؤْمَرُ وَ أَعْرَضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ».

و قال تعالى:

«و انذر عشيرتک الأقربين. و اخفض جناحك لِمَن اتبعك من المؤمنین. فان عَصَوْكَ فقل اني بريء مما تعملون».

(الشعراء: 214 - 216)

اول دم في الاسلام

و كان اصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، و استخفوا بصلاتهم من قومهم.

فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من اصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم

ص: 73

1- فأفرق بين الحق و الباطل.

في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون فناكروهم، و عابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم.

فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بعظمة بعير فشجه، فكان أول دم أُهريق في الاسلام.

بدء الصراع

فلما بادى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم قومه بالاسلام، و صدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، و لم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم و عابها.

فلما فعل ذلك أعظموه، و ناكروه، و اجمعوا خلافه و عداوته.

إلا من عصم الله تعالى منهم بالاسلام، و هم قليل مستخفون.

و عطف على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عمه أبو طالب، و منعه، و قام دونه، و مضى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم على أمر الله مُظهِراً لأمره لا يردده عنه شيء.

فلما رأت قريش أن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم لا يرضيهم من شيء انكروه عليه من فراقهم و عيب آلهتهم. و رأوا ان عمه ابا طالب قد عطف عليه، و قام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشرف قريش إلى

ص: 74

أبي طالب.

فقالوا: يا ابا طالب، إن ابن اخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تُخَلِّي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم على ما هو عليه .. يظهر دين الله، ويدعو اليه، ثم زاد الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال، و تضاغنوا، وأكثرت قریش ذكر رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم بينها.

وتدامروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه.

ثم انهم مَشَوْا إلى ابي طالب مرة أخرى ..

فقالوا له: يا ابا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا. وإنا قد أسدَّ تَتَهِينَاك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه احلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا او ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك احد الفريقين.

ثم انصرفوا عنه ..

فعظم على أبي طالب فراق قومه و عداوتهم، ولم يطب نفساً باسلام رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم لهم، ولا خِذْلَانَه.

ص: 75

لو وضعوا الشمس في يميني؟

ثم إن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبى عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلي من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وانه خاذله و مُسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: «يا عمّ والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته».

ثم استعبر رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم فيكي .. ثم قام ..

فلما ولى .. ناداه أبو طالب فقال، اقبل يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا اسلمك لشيء ابدأ.

ص: 76

ثم إن قريشاً -حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم- مَشُوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أقوى فتى في قريش وأجملها، فخذ فلك ديتة إذا قتل ونصره، و اتخذ فلك ولداً فهو لك، واسلم الينا ابن اخيك، هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه احلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال: والله لبئس ما تسومونني! أعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً.

فقال المُطعم بن عديّ: والله يا أبا طالب لقد انصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد ان تقبل منهم شيئاً.

فقال ابو طالب للمُطعم: والله ما انصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومُظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك.

فاشتد الأمر، وحميت الحرب، وترك القوم ما كان بينهم من عهد وبادى بعضهم بعضاً.

بدء التعذيب !!

ثم إن قريشاً تذا مروا بينهم على من في القبائل منهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم الذين أسلموا معه.

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين .. يعذبونهم، و يفتنونهم عن دينهم.

و منع الله رسوله صلى الله عليه و سلم منهم بعمه ابي طالب.

وقد قام ابو طالب -حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون- في بني هاشم و بني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه و سلم و القيام دونه، فاجتمعوا اليه، وقاموا معه، و اجابوه إلى ما دعاهم اليه إلا ما كان من أبي لهب، عدو الله الملعون.

ص: 78

ماذا نقول في محمد؟

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، و يرد قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقل به.

قال: بل انتم فقولوا اسمع.

قالوا: نقول: كاهن.

قال: لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمَمَةِ الكاهن ولا سَجَعِه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بِخَنَقِهِ، ولا تَخَالُجِهِ، ولا وسوسته.

ص: 79

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَةٌ وَ هَزَجَةٌ و قَرِيضَةٌ و مَقْبُوضَةٌ و مَبْسُوطَةٌ، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحَّار و سحرهم، فما هو بِنَفْثِهِمْ و لا عَقْدَهُمْ.

قالوا: فما نقول يا ابا عبد شمس؟؟.

قال: والله إنَّ لقوله لحلاوة، و إن اصله لَعَدِيقٌ(1)، و إن فِرْعَةَ لجناة(2)، و ما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف انه باطل. و إن اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء و أبيه، و بين المرء و أخيه، و بين المرء و زوجته، و بين المرء و عشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس -حين قدموا الموسم- لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، و ذكروا لهم أمره.

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة ..

ص: 80

1- العدق: الكثير الشعب و الأطراف.

2- لجناة: فيه تمر يجنى.

وفي ذلك من قوله:

شهوداً

«ذرنى و من خلقتُ وحيداً . و جعلتُ له مالاً ممدوداً . و بنين شهوداً . و مهدتُ له تمهيداً . ثم يطمع ان ازيد . كلا إنه كان لاياتنا عنيداً»

أي: خصيماً.

«سأرهِقُهُ صَعُوداً . إنه فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ» .

بسر: كره وجهه.

«ثم ادبرَ و استكبر . فقال إن هذا إلا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إن هذا إلا قول البَشَرِ» .

و أنزل الله تعالى في رسوله صَلَّى الله عليه و سلم، و فيما جاء به من الله تعالى، و في النفر الذين كانوا معه، يصنفون القول في رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، و فيما جاء به من الله تعالى:

«كما انزلنا على الْمُقْتَسِمِينَ . الذين جعلوا القرآنَ عِضِينَ» .

أي: أصنافاً.

«فوربك لَنَسألَنهم اجمعين . عما كانوا يعملون» .

ص: 81

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، لمن لقوا من الناس، و صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

فلما انتشر أمر رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم في العرب و بلغ البلدان دُكِرَ بالمدينة.

و لم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، حين ذكر، و قبل ان يذكر، من هذا الحي من الأوس، و الخزرج، و ذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود، و كانوا لهم حلفاء، و معهم في بلادهم.

ايذاء رسول الله

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، و من أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله صَلَّى الله عليه و سلم سفهاءهم، فكذبوه، و آذوه، و رموه بالشعر، و السحر و الكهانة و الجنون.

و رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم مظهرٌ لأمر الله، لا يستخفي به، مباد لهم

ص: 82

بما يكرهون: من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

وكان أشد ما لقي رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حر ولا عبده.

فرجع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثّر من شدة ما أصابه.

فأنزل الله تعالى عليه:

«يا أيها المدثر . قُمْ فَأَنْذِرْ».

اسلام حمزة!

مر أبو جهل برسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره، من العيب لدينه، والتضعيف لأمره.

فلم يكلمه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، و جارية لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك.

ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم.

ص: 83

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشّحاً قوسه راجعاً من قنص له، و كان صاحب قنص يرميه ويخرج له. و كان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، و كان إذا فعل ذلك لم يمر من ناد من قريش إلا وقف و سلم و تحدث معهم.

و كان أعز فتى في قريش، و أشد شكيمة.

فلما مر بالجارية و قد رجع رسول الله صلّى الله عليه و سلم إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفأ من أبي الحكم بن هشام؟ و جده ههنا جالساً، فأذاه و سبه و بلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، و لم يكلمه محمد!

فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى، و لم يقف على أحد، مُعدّاً لأبي جهل، إذا لقيه، أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه.

حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها، فشجّه شجّةً منكراً.

ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه، اقول ما يقول، فرُدّ ذلك عليّ إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم قد عَزَّ و امتنع و ان حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

عرض الدنيا على رسول الله

قال عتبة بن ربيعة يوماً، و كان سيداً، و هو جالس في نادي قريش، و رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فاكلمه و اعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء و يكف عنا؟

و ذلك حين أسلم حمزة، و رأوا اصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يزيدون و يكثررون.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم اليه فاكلمه.

فقام اليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي إنك منا حيثُ قد علمت، من المنزلة الرفيعة في العشيرة، و المكان في النسب، و إنك قد اتيت قومك بامر عظيم فَرَّقْت به

ص: 85

جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم، «قل يا أبا الوليد اسمع».

قال: يا ابن اخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سؤدناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به مُلكاً مَلِكُنَاك علينا، وإن كان هذا الذي ياتيك رثياً تراه، لا تستطيع رده عن نفسك. طلبنا لك الطّب، وبدلنا فيه اموالنا حتى نُبرِّثك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله صلّى الله عليه وسلم يسمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد»؟

قال: نعم.

قال: «فاستمع مني».

قال: افعل.

ص: 86

فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً و نذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في إكّنة ممّا تدعونا إليه».

ثم مضى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه.

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، و التقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يسمع منه.

ثم انتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا ابا الوليد ما سمعت، فأنت و ذلك».

فقام عتبة إلى اصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!

فلما جلس اليهم قالوا: ما وراءك يا ابا الوليد؟

قال: ورائي اني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، و لا بالسحر، و لا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني، و اجعلوها بي، و خلوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم: فان تُصِبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، و إن يظْهَر على العرب فمُلِكْه ملككم، و عزه

عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سَحَرَكُ والله يا أبا الوليد بلسانه!

قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم.

يسألون عنه اليهود!

ثم إن قريشاً بعثت النضر بن الحرث، وعتبة بن أبي معيط إلى علماء اليهود بالمدينة.

وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، ووصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم اهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألا احبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله.

وقالا لهم: إنكم اهل التوراة، وقد جنناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقال لهما علماء اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن؛ فان

ص: 88

اخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ فرؤا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فانه قد كان لهم حديث عجب، و سلوه عن رجل طَوَّافٍ قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها، ما كان نبؤه؟ و سلوه عن الروح ما هي؟ فان اخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي، و إن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوِّلٌ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبلا .. حتى قدما مكة على قريش، فقالوا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم و بين محمد، قد اخبرنا علماء اليهود أن نسأله عن أشياء قد أمرونا بها، فان اخبركم عنها فهو نبي، و إن لم يفعل فالرجل متقول فرؤا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فقالوا: يا محمد اخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عَجَبٍ، و عن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها، و اخبرنا عن الروح ما هي؟

فقال لهم رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم: أخبركم بما سألتم عنه غداً.

و لم يقل إن شاء الله ..

فانصرفوا عنه ..

فمكث رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم خمسَ عشرةَ ليلة لا يحدث الله اليه في ذلك و حيا، و لا يأتيه جبريل، حتى أَرَجَفَ أهل مكة.

ص: 89

وقالوا: وعدنا محمد غداً و اليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه.

و حتى أحزن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم مُكثُ الوحي عنه، و شق عليه ما يتكلم به اهل مكة.

ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، و خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، و الرجل الطواف، و الروح.

فلما جاءهم رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بما عرفوا من الحق، و عرفوا صدقه فيما حدّث، و موقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب، حين سألوه عما سألوا عنه، حال الحسد منهم له بينهم و بين اتباعه و تصديقه، فعتوا على الله، و تركوا أمره عياناً، و لجوا فيما هم عليه من الكفر.

فقال قائلهم:

«لا تَسْمَعُوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلكم تغلبون»

أي اجعلوه لغواً و باطلاً، و اتخذوه هزواً لعلكم تغلبون بذلك، فإنكم إن ناظرتموه او خاصتموه يوماً غلبكم.

ص: 90

اول من جهر بالقرآن

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بمكة عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه.

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فَمَنْ رَجُلٌ يَسْمَعُهُمْ؟

فقال عبدالله بن مسعود: أنا.

قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني .. فان الله سيمنعني.

فغداً ابن مسعود، حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديةها، حتى قام عند المقام.

ثم قرأ

«بسم الله الرحمن الرحيم»

رافعاً بها صوته.

ص: 91

«الرحمن . علم القرآن» ..

ثم استقبلها يقرؤها.

و تأملوه: فجعلوا يقولون . ماذا قال ابن أم عبد؟

ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد.

فقاموا اليه، فجعلوا يضربون في وجهه، و جعل يقرأ، حتى بلغ منها ما شاء الله ان يبلغ.

ثم انصرف إلى اصحابه، و قد أثروا في وجهه.

فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك.

فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، و لئن شئت لأغادينهم بمثلها غداً.

قالوا: لا .. حسبك .. قد اسمعتهم ما يكرهون.

التعذيب يشتد!

ثم إنهم عدوا على من أسلم و اتبع رسول الله صلى الله عليه و سلم من أصحابه.

ص: 92

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين.

فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم، بالضرب، والجوع، والعطش، ورمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم؛ فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم.

أحدٌ .. أحدٌ !!

وكان بلالٌ صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرج -إذ حميت الظهيرة- فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره.

ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد و تعبد اللات والعزى.

فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ !!

حتى مر به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به.

فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟

ص: 93

حتى متى؟

قال: انت الذي أفسدته، فانتقذه مما ترى.

فقال أبو بكر: افعل، عندي غلام أسود أجلد منه، و أقوى على دينك، اعطيكه به.

قال: قد قبلت.

قال: هو لك.

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، و أخذه فأعتقه.

صبراً آل ياسر

و كانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر و أبيه و أمه - و كانوا أهل بيت إسلام- إذا حميت الظهرية، يعدّبونهم برمضاء مكة.

فيمر بهم رسول الله صلّى الله عليه و سلم فيقول: «صبراً آل ياسر، موعِدُكم الجنّة».

فأما أمه فقتلوها، و هي تآبى إلا الإسلام.

ص: 94

أبو جهل يتولى الجريمة

وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش.

إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف و منعة، أنبه و خذاه، وقال: تركت دين أبيك و هو خير منك؟! لنسفهن حلمك، و لنقيلن رأيك، و لنضعن شرفك.

وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، و لنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربه و اغرى به!

الهجرة الأولى الى الحبشة

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم ما يصيب أصحابه من البلاء، و ما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، و من عمه أبي طالب، و أنه لا

يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلمُ عنده أحدٌ، و هي أرضُ

ص: 95

صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه؟».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة: وفراراً إلى الله بدينهم.

فكانت اول هجرة كانت في الإسلام.

النجاشي يرفض تسليمهم!

1

عن أم سَلَمَةَ -زوج النبي صَلَّى الله عليه وسلم- قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمّا على ديننا، وعبدا الله تعالى لا نُؤذِي ولا نسمع شيئاً نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشاً أئتمروا بينهم ان يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة.

ثم بعثوا بذلك عبدالله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص، فأمروهما بأمرهم.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه، فقالا له: ايها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء،

ص: 96

فارقوا دين قومهم و لم يدخلوا في دينك، و جاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن و لا انت، و قد بعثنا اليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم و أعمامهم، و عشائريهم، لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً، و اعلم بما عابوا عليهم و عاتبوهم فيه.

ثم ارسل النجاشي إلى اصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فدعاهم.

فلما جاءوا .. و قد دعا النجاشي اساقفته فنشروا أناجيلهم حوله .. سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، و لم تدخلوا ديني و لا في دين أحد من هذه الملل؟!!

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، و نأتي الفواحش، و نقطع الأرحام، و نسبيء الجوار، و يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، و نعبده، و نخلع ما كنا نعبد نحن و آبؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان، و أمرنا بصدق الحديث، و أداء الأمانة، و صلة الرحم، و حسن الجوار، و الكف عن المحارم و الدماء، و نهانا عن الفواحش، و قول الزور، و أكل مال اليتيم، و قذف المحصنة، و أمرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام.

-فعدد عليه أمور الإسلام-

فصدقناه، و آمنّا به و اتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، و حرّمنا ما حرّم علينا، و أحلّلنا ما حلل لنا، فغدا علينا قومنا فعذبونا و فتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، و ان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا و ظلمونا و ضيقوا علينا و حالوا بيننا و بين ديننا، خرجنا إلى بلادك، و اخترناك على من سواك، و رغبتنا في جوارك و رجونا ان لا نظلم عندك ايها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ.

فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص)، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، و بكت أساقفته حتى أخضلوا أناجيلهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا و الذي جاء به عيسى ليخرُج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما.

فخرجنا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءوا به، و أقمنا عنده بخير دار مع خير جار .. حتى قدمنا على رسول الله صلّى الله عليه و سلم

ص: 98

و هو بمكة.

إسلام عمر بن الخطاب

ولما قدم عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، وردهم النجاشي بما يكرهون، وأسلم عمر بن الخطاب، امتنع به أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم وحمزة.

وكان إسلام عمر ان اخته فاطمة بنت الخطاب -و كانت عند سعيد بن زيد- وكانت قد أسلمت و اسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن.

فخرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه، يريد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ورهطاً من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من اربعين من بين رجال ونساء.

ومع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر، وعليّ، في رجال من المسلمين، ممن أقام مع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم بمكة

ص: 99

ولم يخرج فيمن خرج إلى ارض الحبشة.

فلقبه نعيم بن عبد الله - وكان أيضاً يستخفي بإسلامه - فقال له: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً.. هذا الصابي، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟!

قال: واي أهل بيتي؟

قال: ابن عمك سعيد بن زيد، واختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، و تابعا محمداً على دينه، فعليك بهما!

فرجع عمر عامداً إلى أخته وزوجها، وعندهما خباب معه صحيفة فيها (طه1) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خباب في بعض البيت، واخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها.

وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل

ص: 100

1- سورة طه.

قال: ما هذه الهينة التي سمعت؟!

قالا له: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله لقد اخبرت أنكما تابعتهما محمداً على دينه ..

و بطش بزواج أخته سعيد بن زيد، فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجّها.

فلما فعل ذلك قالت له اخته وزوجها: نعم لقد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخوته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آناً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر كاتباً.

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي، و حلف لها بألتهته ليردّنها إذا قرأها اليها.

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل ..

فأعطته الصحيفة و فيها (طه) قرأها.

فلما قرأ منها صدراً قال: ما احسن هذا الكلام و أكرمه !!

ص: 101

فلما سمع ذلك خَبَاب خرج اليه، فقال له: يا عمر والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس و هو يقول: اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر.

فقال له عند ذلك عمر: فدُلني يا خَبَاب على محمد حتى آتية فأسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب.

فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فنظر من خَلَلِ الباب، فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، وهو فزعٌ، فقال يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف.

فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم «أُذِّنْ لَهُ»، فأذن له الرجل.

ونفض اليه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة، فأخذ بِحُجْرَتِهِ

أو بمجمع رداؤه، ثم جبذه جبذة شديدة وقال: « ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة؟ ».

فقال عمر: يا رسول الله، جنتك لأومن بالله و برسوله، وبما جاء من عند الله.

فكبر رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم تكبيرة عرف اهل البيت من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم أن عمر قد أسلم!

فتفرق أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم من مكانهم و قد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة.

و عرفوا انهما سيمنعان رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، و ينتصفون بهما من عدوهم.

قال عمر. لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي اهل مكة أشد لرسول الله صَلَّى الله عليه و سلم عداوة، حتى آتته فاخبره أنني قد اسلمت، قلت أبو جهل، فاقبلت حين اصبحت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليّ أبو جهل، فقال: مرحباً و اهلاً يا ابن اختي، ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أنني قد آمنت بالله و برسوله محمد، و صدقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي، و قال: قبحك الله، و قبح ما جئت به.

ص: 103

فلما رأَت قريش أن اصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم قد نزلوا بلداً أصابوا منه أمناً و قراراً، و ان النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، و ان عمر قد أسلم، فكان هو و حمزة مع رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم و أصحابه، و جعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا و ائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، و بني المطلب: على أن لا ينكحوا اليهم، و لا ينكحوهم، و لا يبيعوهم شيئاً، و لا يبتاعوا منهم.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة، ثم تعاهدوا و تواتقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم.

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم، و بنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شِعبه، فاجتمعوا إليه.

و خرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى إلى قريش، فظاهرهم أي أعانهم.

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، حتى جهدوا، لا يصل اليهم

شيء إلا سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش!

ورسول الله صَلَّى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً و جهاراً، مبادياً بأمر الله، لا يتقي فيه أحداً من الناس.

فجعلت قريش، يهمزونه ويستتهزون به، ويخاصمونه، و جعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، فمنهم من سَمِّي لنا، و منهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار.

عودة المهاجرين

و بلغ أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل أحد إلا بجوارٍ أو مستخفياً.

ص: 105

مشى هشام بن عمرو إلى زهير بن أبي أمية فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام و تلبس الثياب، و تنكح النساء، و أخوالك حيث قد علمت، لا- يباعون، و لا يبتاع منهم، و لا ينكحون، و لا ينكح اليهم؟! أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعائك اليه منهم ما أجابك اليه ابداً.

قال: ويحك يا هشام!! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله أن لو كان معي رجل آخر لقيمت في نقضها حتى انتقضها.

قال: قد وجدت رجلاً.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فلما تكامل الموافقون على نقض الصحيفة خمساً، ذهبوا إلى البيت

و اعلنوا نقصها.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِيَ بِلَيْلٍ تُشْوِرُ فِيهِ بغير هذا المكان

الاسراء والمعراج

ثم اسرى برسول الله صَلَّى الله عليه و سلم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، و هو بيت المقدس، و قد فشا الإسلام بمكة في قريش، و في القبائل كلها.

و كان في مسراه، و ما ذكر منه بلاءٌ و تمحيص، و أمر من أمر الله في قدرته و سلطانه، فيه عبرة لأولي الألباب، و هدى و رحمة و ثبات لمن آمن بالله و صدق، و كان من أمر الله على يقين.

فأسرى به كيف شاء، و كما شاء، لِيُرِيَهُ من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره و سلطانه العظيم، و قدرته التي يصنع بها ما يريد.

أتى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بالبُرَاق - و هي دابة توضع حافرها في منتهى طرفها - فحمل عليها ..

ص: 107

فمضى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ومضى جبريل عليه السلام معه، حتى انتهى به إلى بيت المقدس ..

ولما فرغ من أمر بيت المقدس، صعد إلى السماء.

ولم يكن الصعود على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس، بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس، ليرجع عليه إلى مكة.

فصعد من سماء إلى سماء حتى جاوز السابعة.

وكلما جاء سماء تلقته منها مقربوها، و من فيها من أكابر الملائكة والأنبياء.

وذكروا أعيان من رآه من المرسلين، كآدم في سماء الدنيا، ويحيى وعيسى في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة.

ثم جاوز مراتبهم كلهم حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقدام.

ورفعت لرسول الله صلّى الله عليه وسلم سدرة المنتهى، فإذا ورقها كأذان القبلة .. وغشيتها عند ذلك أمور عظيمة، الوان متعددة باهرة، و غشيتها من نور الرب جل جلاله.

ص: 108

ورأى هناك جبريل له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض.

وهو الذي يقول الله تعالى:

«ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى»

أي ما زاغ يميناً ولا شمالاً، ولا ارتفع عن المكان الذي حد له النظر إليه، وهذا هو الثبات العظيم، والأدب الكريم، وهذه الرؤيا الثانية لجبريل عليه السلام على الصفة التي خلقه الله تعالى عليها.

وفرض الله سبحانه وتعالى على عبده محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته الصلوات ليلتئذ، خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم لم يزل يختلف بين موسى وبين ربه عز وجل، حتى وضعها الرب جل جلاله إلى خمس، وقال هي خمس وهي خمسون، الحسنه بعشر أمثالها، فحصل له التكليم من الرب عز وجل ليلتئذ.

ثم هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريماً له وتعظيماً عند رجوعه من الحضرة الإلهية

العظيمة.

ص: 109

فلما حانت الصلاة أمّ صلّى الله عليه وسلم الأنبياء، فتقدمهم إماماً عن أمر جبريل.

ثم خرج منه فركب البراق، وعاد إلى مكة!!

فأصبح بها وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار، وقد عاين في تلك الليلة من الآيات والأموال التي لو رآها -أو بعضها- غيره لأصبح مندهشاً، أو طائش العقل.

ولكنه صلّى الله عليه وسلم أصبح واجماً -أي ساكناً- يخشي إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه.

فتلطف بأخبارهم أولاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة.

وذلك أن أبا جهل لعنه الله -رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلم في المسجد الحرام، وهو حالس واجم.

فقال له: هل من خبر؟!!

فقال: نعم.

فقال: وما هو؟!!

فقال: إني أسرى بي الليلة إلى بيت المقدس.

قال: إلى بيت المقدس؟!!

قال: نعم.

ص: 110

قال: أرايت إن دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتني به؟!

قال: نعم.

فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك، وأراد رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم جمعهم ليخبرهم ذلك و يبلغهم.

فقال أبو جهل: هيا معشر قريش .. و قد اجتمعوا من أنديتهم.

فقال: أخبر قومك بما أخبرتني به.

فقص عليهم رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم خبر ما رأى، وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة و صلى فيه!.

فمن بين مصفق، و بين مصفر، تكذيباً له، و استبعاداً للخبر!!

الصدِّيق

و طار الخبر بمكة، و جاء الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه. فأخبروه أن محمداً يقول كذا و كذا.

ص: 111

فقال: إنكم تكذبون عليه.

فقالوا: والله إنه ليقوله.

فقال: إن كان قاله فلقد صدق.

ثم جاء إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، و حوله مشركي قريش، فسأله عن ذلك فأخبره، فاستعلمه عن صفات بيت المقدس ليعلم المشركون و يعلموا صدقه فيما أخبرهم به.

و كان مما قال أبو بكر، و قد اقبل حتى انتهى إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: يا نبي الله احدثت هؤلاء القوم انك أتيت بيت المقدس هذه الليلة؟

قال: نعم.

قال: يا نبي الله، فصفه لي فإني قد جئته.

فجعل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر، و يقول ابو بكر صَدَقْتَ، اشهد انك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً قال: صدقت، اشهد أنك رسول الله، حتى انتهى.

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم لأبي بكر «انت يا أبا بكر الصِّدِّيق».

فيومئذ سماه الصِّدِّيق.

ص: 112

ولما أصبح رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم من صبيحة ليلة الإسراء، جاءه جبرائيل عند الزوال، فبين له كيفية الصلاة و اوقاتها.

و أمر رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم اصحابه، فاجتمعوا و صلى به جبرائيل في ذلك اليوم إلى الغد، و المسلمون ياتمون بالنبى صَلَّى الله عليه و سلم، و هو يقتدي بجبرائيل.

و روى أن الصلاة كانت قبل الإسراء تكون ركعتين، ثم لما فرضت الخمس، فرضت حضراً على ما هي عليه، و رخص في السفر أن يصلى ركعتين كما كان الأمر عليه قديماً.

وفاة خديجة و أبي طالب!!

ثم إن خديجة و أبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم المصائب بموت خديجة، و كانت له وزير صدقٍ على

الاسلام يشكو اليها.

و بموت عمه أبي طالب، وكان له عضداً و منعة و ناصراً على قومه، و ذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين!!

أقول .. هذه هي الخطوط العريضة من .. حياة أم المؤمنين خديجة .. عليها السلام ..

و الآن ندخل إلى تفصيل حياتها الطاهرة!!

ص: 114

نَبِيان عظيمان .. في زواجهما .. بتشابهان ..!؟!

ص: 115

تعجب عَجَباً كبيراً .. حين تقرأ هذا الفصل من هذا الكتاب!!

إنه فُتِحَ جديد .. ونهج فريد ..

إنه مِنَّةٌ مِنَ اللهِ بها .. فله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه!!

ماذا أريد أن أقول؟!

لاحظت فجأةً .. أن هناك تشابهاً .. بل تطابقاً عجبياً بين قصتين ..

قصة زواج نبيِّ الله .. موسى .. عليه السلام ..

وقصة زواج نبيِّنا .. محمّد .. صلّى الله عليه وسلم ..

ولننظر الآن .. كيف كان ذلك؟!

أولا قصة زواج موسى .. عليه السلام

- 1- شاب يفرّ إلى أرض مدين .. حيث تطارده أجهزة فرعون لتقبض عليه .. وتقدمه للإعدام ..
- 2- عند وصوله إلى ماء مدين .. وجد امرأتين لا تستطيعان سقي غنمهما حتى ينصرف الرعاة من أشداء الرجال ..
- 3- يسقي موسى لهما .. ثم ينصرف إلى الظلّ .. وقد بلغ به الإعياء والجوع منتهاه ..
- 4- ينادي ربه:

«رَبِّ .. إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ.»

- 5- «فجاءتُهُ إحداهما تمشي على استحياء .. قالتُ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ .. لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ..»!!
- 6- يطلب إليها موسى ان يتقدمها في المسير .. فيسير أمامها وهي من ورائه!!
- 7- تأمل هنا التدبير الإلهي .. لتمكين الفتاة الطاهرة من رؤية

ص: 118

موسى .. الشاب الطاهر ..

8- الفتاة تعلن إلى أبيها من قبل:

«يا أبتِ استأجرهُ .. إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ..»!!

9- الشيخ الكبير يخطب موسى .. الشاب الفقير .. القويُّ الأمين .. إلى إحدى ابنتيه .. ويعلن ذلك إلى موسى:

«إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ..»!!

فهو حريص على أن يظفر به لاحداهما!!

10- بل ويحدد أبوهما المهر بنفسه

«على أن تأجرني ثمانين حجج .. فان اتممتَ عشرًا فمن عندك ..»!!

11- موسى يلتقط العرض .. ويوافق .. ويختار إحدى الفتاتين ..

12- موسى يدخل بعروسه .. ويمكث عشر سنين في حياة زوجية مباركة هادئة ..

13- «فلما قضى موسى الأجل .. و سارَ بأهله (إلى مصر) ءانس من جانب الطُّور ناراً ..» !!

ص: 119

ثانياً: قصة زواج .. النبي .. صَلَّى اللع عليه وسلم ..

1- كانت خديجة .. امرأة تاجرة ذات شرف و مال .. تستأجر الرجال في مالها .. بشيء تجعله لهم .. وكانت قريش قوماً تجاراً .. فلما بلغها عن رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. ما بلغها .. من صدق حديثه .. وعِظَم أمانته .. وكَرَم اخلاقه .. بعثت اليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً .. وتعطيه أفضل ما كانت تُعطي غيره من التجار .. مع غلام لها يقال له مَيْسرة ..

2- فقبله رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. منها .. و خرج في مالها ذلك، و خرج معه غلامُها مَيْسرة .. حتى قدم الشام ..

3- ثم باع رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. سلعته التي خرج بها .. واشترى ما أراد ان يشتري .. ثم اقبل قافلاً إلى مكة و معه ميسرة ..

4- فلما قدم على خديجة بمالها .. باعَتْ ما جاء به .. فأضعف او قريباً ..

5- وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة .. مع ما أراد الله بها من كرامته ..

6- بعثت إلى رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. فقالت له - فيما يزعمون:

يا بن عمّ .. اني قد رغبتُ فيك .. لقرابتك .. و سِطَتِكَ (شرفك) في قومك .. و امانتك .. و حُسْنُ خُلُقِكَ .. و صدق حديثك ..

7- ثم عرضت عليه الزواج ..

8- وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريشٍ نسباً .. وأعظمهنَّ شرفاً .. وأكثرهنَّ مالاً .. كلَّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لويقدّر عليه

..

9- فلما قالت ذلك لرسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. ذكّر ذلك لأعمامه .. فخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب .. رحمه الله .. حتى

دخل على عمّها .. فخطبها اليه ..

10- فتزوجها ..

11- وأصدقها رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. عشرين بكرةً ..

12- قضى .. صَلَّى الله عليه وسلم .. خمسة عشر عاماً في حياة زوجية مباركة طيبة .. حتى أوحى اليه في الأربعين !!

ص: 121

ثالثاً: اوجه التشابه ..

1- في موسى عليه السلام .. شاب فقير «إني لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقيرٍ» .. وفي النبيّ صلّى الله عليه وسلم .. شاب فقير قليل المال «و وجدك عائلاً فاغنى»!!

2- في موسى عليه السلام .. شاب قويّ أمينٌ «إنَّ خيرَ مَنْ استأجرتَ القويُّ الأمينُ» هذه شهادة إحدى ابنتي الشيخ الكبير .. وفي النبيّ (ص) .. شاب قويّ أمينٌ .. شهدت بذلك خديجة وأعلنته اليه (ص) «إني قد رغبتُ فيكَ .. لقرابتك .. وسيدتِكَ في قومك .. وأمانتك» .. هذا عن الأمانة .. وقد شهدت مكة بذلك كلها .. وأجمعت على تسميته بالأمين .. وأما القوة فشيء طبيعي في صفاته (ص)!!

3- في موسى عليه السلام .. عرض عليه أبوهما الزواج من إحدى ابنتيه «إني أريدُ أنْ أنكحَكَ إحدى ابنتي هاتين» فكانت مفاجأة تامة لموسى .. فهو لم يكن يخطر بباله أن يتزوج إحدى هاتين!! وفي النبيّ (ص) .. عرضت خديجة نفسها على

ص: 122

النبي (ص) ليتزوجها .. فكانت مفاجأة تامة للنبي (ص) ... لم يخطر بباله ذلك من قبل ..

قالت: نفيسة بنت مُنيّة:

«أرسلتني خديجة دسيساً إلى «محمد» بعد أن رجع من الشام .. فقلت: يا محمد .. ما يمنعك من أن تتزوج؟. قال: ما بيدي مال أتزوج به .. قلت: فإن كفيت ذلك .. ودعيت إلى الجمال و المال و الشرف و الكفاءة .. ألا تجيب؟. قال: فمن؟. قلت: خديجة .. قال: وكيف لي بذلك؟. قلت: عليّ .. وأنا أفعل.»!!

و تأمل هنا المفاجأة فهي واضحة جداً!!

و أجمل العطاء أن يفجأك الله بالعطاء من حيث لا تحتسب!!

4- في موسى عليه السلام .. رغم أنه كان في تلك اللحظة لا يملك مالاً .. دفع المهر إلى عروسه .. عشر سنين من العمل .. وفي النبي (ص) .. دفع المهر إلى خديجة عليها السلام «عشرين بكرة»!!

5- في موسى عليه السلام .. دخل بيت أبيها و كلهم يرحبون بمقدمه .. وفي النبي (ص) ... دخل بيت خديجة عليها السلام .. و كل أهل البيت يرحبون بمقدمه الشريف ..

6- في موسى عليه السلام .. قضى عشر سنين في بيت طيب طاهر .. ثم فجأه الوحي .. وفي النبي (ص) ... قضى خمسة عشر

عاماً في بيت الزوجية الطاهر .. ثم فجأه الوحي في غار حراء!!

7- في موسى عليه السلام .. كانت المكرومة التي بدرت منه .. حين سقى لهما ثم تولّى إلى الظل .. سبباً في اكتشاف فتوته وأمانته وقوته ..
«يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين» ..

وفي النبي (ص) .. كانت مكارم أخلاقه وأمانته في رحلته إلى الشام في تجارة خديجة .. سبباً في اكتشاف قوته وأمانته وتأكد ذلك عند خديجة عليها السلام ..

8- في موسى عليه السلام .. قام البرهان للشيخ الكبير وابتتبه على قوة موسى وأمانته .. فألقى الشيخ اليه بمقاليد أموره كلها .. وفي النبي (ص) .. قام البرهان عند خديجة على قوته وأمانته .. فالقت اليه بأمورها كلها ... و مالها كله يتصرف كيف يشاء!! فتنفرغت هي للبيت و الزوجية .. و تركت له (ص) يتجر في مالها كيف يشاء!!

هذه بعض اوجه التشابه العجيب .. بل التطابق الغريب .. بين القصتين الشريفتين .. قصة زواج الكليم عليه السلام .. وقصة زواج الحبيب (ص)!!

فماذا في هذا؟!!

هل هو محض صدفة؟!!

ص: 124

كلا ثم كلا .. إنما هو التدبير الإلهي .. والصنع الحكيم المُحكّم ..

ما كان موسى عليه السلام .. حين تزوج ابنة الشيخ الكبير .. يعلم أنه سوف يكون نبياً .. ومن أولي العزم من الرُّسل!!

وما كان محمد (ص) .. حين تزوج خديجة .. يعلم أنه سوف يكون خاتم النبيين .. وسيد المرسلين .. ورسول الله إلى الخلق كافة إلى يوم الدين!!

ولكنَّ الله يعلم .. ومقتضى علمه سبحانه .. أن يصنعهما على عينه «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» .. «فَأَنْتَكَ بِأَعْيُنِنَا» ..

مقتضى علمه سبحانه .. أن يُعدَّهما .. ويصنعهما كيف يشاء ..

إنهما لا يعلمان بعد .. ماذا يراد بهما ..

ولكنَّ الله عز وجل يعلم

«اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»!!

فالتشابه .. أو التطابق .. في قصة زواجهما .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. ليس صدفة .. وإنما تدبير ليس كمثله تدبير

«يُدَبِّرُ الْأُمْرَ .. يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ..»!!

وهذا التشابه إشارة عظيمة .. تؤكد لنا نحن البشر .. أَنَّ مُوسَى حَقٌّ .. وَأَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ!!

وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْكَلِيمِ .. هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْحَبِيبِ ..

هذا سوف يكون نبياً عظيماً ..

وذاك سوف يكون سيد الأنبياء ..

فإن تشابهاً في زواجهما .. فليست هي الصدفة .. وإنما هو التدبير من الله للنبيين الكريمين .. ليحملا من بعد ما سوف يحملان!!

و كما اكتشفت الفتاة جوهر موسى فهتفت بأبيها «يا أبتِ استأجره إنَّ خيرَ مَنْ استأجرتَ القويُّ الأمينُ.»!!

كذلك اكتشفت خديجة عليها السلام .. جوهر النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت له على استحياء:

«يا بن عمِّ .. إني قد رغبتُ فيكَ ..

«لقرابتك ..

«و سِطَّتِكَ (شرفك) في قومك ..

«و امانتك ..

«و حُسْنُ خَلْقِكَ ..

«و صدق حديثك ..»!!

فدلَّتْ بذلك .. على عبقرية مكنونة في جوهرها ..

لقد اكتشفت أعلى .. وأعلى .. وأرقى .. وأكمل صفات البشر ..

و هذا من أقوى دلائل عبقرية خديجة!!

طوبى لها .. حين اختارت ..

ثم طوبى لها .. حين رضي .. صلى الله عليه وسلم .. زواجها ..

هنالك شُرُفَت شَرَفًا لم تبلغه سيدة قطّ ..

لقد صارت زوجاً .. لأشرف الخلق .. صلى الله عليه وسلم!!

فصارت أمّاً للمسلمين و المسلمات .. الى يوم القيامة!!

127

ص: 127

كيف تمّ .. الزواج .. المبارك ..؟!!

ص: 129

لا أحب الخوض في التفاصيل .. ولا اطلاق الخيال في وصف حفل الزفاف ..

كما صنع بعض مَنْ كتبوا في هذا الأمر الجليل ..

ذلك أنّ أيّ شأن من شؤون النبيّ .. صلّى الله عليه وسلم .. يجب مساسه بالتوقير .. الذي فرضه الله علينا .. إذا تحدثنا عن شؤون رسوله ..
صلّى الله عليه وسلم ..

امثالاً لقوله تعالى:

«ما كانَ مُحَمَّدٌ ابا احدٍ مِنَ رجالِكُمْ ..

» و لكن رسولَ الله ..

» و خاتمَ النبيّينَ ..

» و كانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً.»

رسولَ الله .. و خاتمَ النبيّينَ؟!!

ص: 131

وَمَن كَانَ هَذَا مَقَامَهُ .. وَجِبَ أَنْ نَغْضَّ أَصْوَاتَنَا عِنْدَهُ .. وَأَنْ نَتَكَلَّمَ بِحَدْرٍ!!

وَلَا أُدْرِي مَنْ أَيْنَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِي ذَهَبُوا يَتَخِيلُونَ وَصِفَاءً لِحَفْلِ زَفَافِ خَدِيجَةَ .. عَلَيْهَا السَّلَامُ ... فَقَالُوا بَدَقُّ الطَّبُولِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ!!

كَلَا ثُمَّ كَلَا .. بَلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ .. وَمَا يَنْبَغِي لِلْخِيَالِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَكَانٌ!!

مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ سَوْفَ نَقْفُ عِنْدَ الْوَارِدِ فِي هَذَا الشَّأْنِ .. فَتَقُولُ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ:

حَدِيثُ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

خَدِيجَةَ .. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

«فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ..

«تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ .. بِنْتَ خَوَيْلِدٍ .. بِنِ اسْدٍ .. بِنِ عَبْدِ الْعُرَيِّ .. بِنِ قُصَيِّ .. بِنِ كِلَابٍ .. بِنِ مَرَّةٍ .. بِنِ كَعْبٍ .. بِنِ لُؤَيِّ .. بِنِ غَالِبٍ ..

ص: 132

قال ابن إسحاق:

«وكانت خديجة بنت خويلد .. امرأة تاجرة ذات شرف و مال ..

«تستأجر الرجال في مالها ..

«و تضاربهم (1) إياه .. بشيء تجعله لهم ..

«و كانت قريش قوماً تجاراً ..

«فلما بلغها عن رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. ما بلغها .. من صدق حديثه .. وعظم امانته .. وكرم اخلاقه .. بعثت اليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ..

«و تعطيه أفضل ما كانت تُعطي غيره من التجار ..

«مع غلام لها يقال له ميسرة ..

«فقبله رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. منها .. و خرج في مالها ذلك .. و خرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام ..

«فنزل رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان

«فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي

ص: 133

1- تضاربهم .. اي تجعل لهم نصيباً في الربح.

نزل تحت هذه الشجرة؟.

«قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم ..

«فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ..

رغبة خديجة في الزواج منه

«ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. سلعته التي خرج بها .. واشترى ما أراد أن يشتري ..

«ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومع ميسرة ..

«فكان ميسرة -فيما يزعمون- إذا كانت الهاجرة واشتد الحرّ .. يرى ملكين يُظَلَّانِه من الشمس .. وهو يسير على بعيره ..

«فلما قدم مكة على خديجة بمالها .. باعته ما جاء به .. فأضعف أو قريياً ..

«وحدثها ميسرة عن قول الراهب ..

«و عما كان يرى من إضلال الملكين إياه ..

«و كانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة.

«مع ما أراد الله بها من كرامته ..

«فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به ..

«بعثت إلى رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. فقالت له -فيما يزعمون-

«يا ابن عمّ .. إني قد رغبتُ فيك ..

«لقرابتك ..

«و سِطِّتِك(1) في قومك ..

«وأمانتك ..

«و حُسْنُ خَلْقِك ..

«و صدق حديثك ..

«ثم عرضت عليه نفسها ..

«و كانت خديجة يومئذ اوسط نساء قريش نسباً ..

«و أعظمهنّ شرفاً ..

«و أكثرهنّ مالاً ..

«كلّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه ..

ص: 135

1- و شرفك.

زواجه .. صَلَّى الله عليه و سلم من خديجة

«فلما قالت ذلك لرسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. ذكر ذلك لأعمامه ..

«فخرج معه عمُّه حمزة بنُ عبد المطلب ..

«حتى دخل على خُوَيْلِد بن أسد .. فخطبها اليه ..

«فتزوجها ..

«وأصدقها رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. عشرين بكرةً ..

«وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم ..

«ولم يتزوج عليها غيرها ..

«حتى ماتت .. رضي الله عنها ..»

ص: 136

«و يقال ان الذي نهض معه .. صلّى الله عليه وسلم هو أبو طالب .. و هو الذي خطب خطبة النكاح ..

«وقيل: لعلهما خرجا معه جميعاً .. و خطب أبو طالب الخطبة، لأنه كان أسنَّ من حمزة ..

«و ذكر غير ابن إسحاق أن خويلاً كان إذ ذاك قد هلك .. و أن الذي أنكح خديجة رضي الله عنها هو عمها عمرو بن أسد ..»

السفارة التي مهدت للزواج

قالت: «نفيسة بنت مُنية»:

«ارسلتني (خديجة) دسيساً إلى (محمد) بعد أن رجع من الشام ..

«فقلت: (يا محمد) ما يمنعك من أن تتزوج؟».

«قال: ما بيدي مال أتزوج به ..

«قلت: فإن كفيت ذلك .. ودعيت إلى الجمال و المال و الشرف و الكفاءة ألا تجيب؟.

«قال: فمن؟.

«قلت: (خديجة) ..

«قال: و كيف لي بذلك؟.

«قلت: عليّ .. و أنا أفعل.»

عقد الزواج؟

«و جاء اليوم الموعود ..

«و ذهب (محمد) لعقد الزواج ..

«و ذهبت معه بنو هاشم .. و على رأسهم عمه (أبو طالب) و عمه (الحمزة) ..

«كما حضر معه رؤساء مصر.

«و حضر الحفل آل (خديجة) من بني أسد ..

ص: 138

«و على رأسهم (عمرو بن اسد) ..

«و نهض (أبو طالب) فخطب خطبة الزواج .. و كان مما قال:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم .. و زرع إسماعيل ..

«و ضئضي (أصل) معدّ ..

«و عنصر مضر ..

«و جعلنا حضنة بيته .. و سواس حرمه ..

«و جعل لنا بيتاً محجوجاً .. و حرماً آمناً .

«و جعلنا الحكام على الناس ..

«ثم قال: إن ابن أخي هذا (محمد بن عبدالله) لا يوزن به رجل إلا رجح به ..

«فإن كان في المال قل (قليل المال).

«فإن المال ظل زائل .. و أمر حائل (يتغير) ..

«و محمد من عرفتم قرابته ..

«و قد خطب (خديجة بنت خويلد) ..

«و بذل لها من الصداق ما آجله و عاجله من مالي ..

«و هو بعد هذا والله نبأ عظيم .. و خطر جليل ..

«وكان مهر (خديجة) عشرين بكرة ..

«و نهض (عمرو بن أسد) عم خديجة .. وزعيم قومه .. فردّ على (أبي طالب) .. واثنى على (محمد بن عبد الله).

«و أعلن تزويجه من ابنة أخيه (خديجة) ..

«و بذلك تمت مراسم عقد الزواج بين أشرف زوجين ..

«و قد كان زواجهما بعد مجيء (محمد بن عبد الله) من الشام بشهرين و خمسة عشر يوماً ...

«و كان عمره آنذاك خمسة و عشرين عاماً.

«و كانت - كما روى ابن أخيها- (حكيم بن حزام بن خويلد) قد بلغت الأربعين عاماً ..!!»

رواية ابن الأثير

و لا تختلف رواية ابن الأثير عما ذكره غيره .. و مما قال:

«فلما أرسلت إلى النبيّ .. صلّى الله عليه وسلم .. قال لأعمامه ..

«و خرج و معه حمزة بن عبد المطلب .. و أبو طالب و غيرهما

ص: 140

من عمومته ..

«حتى دخل على خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ فخطبها اليه ..

«فتزوَّجها ..

«فولدت له اولاده كلهم ..

«إلا إبراهيم ..

«وقيل: إنَّ الذي زوّجها عمها عمرو بن أسد .. وإنَّ أباهما مات قبل الفِجَارِ ..

«وكان الرسول بين خديجة وبين النبيّ .. صلّى الله عليه وسلم .. نفيسة بنت مُنَيَّة .. وأسلمت يوم الفتح .. فبَرَّها رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. وأكرمها.»

ماذا قال الامام العيني؟!؟

«(بابُ (1) ترويح النبيّ .. صلّى الله عليه وسلم .. خديجةً .. وفضلها رضي الله عنها.)

ص: 141

1- من صحيح البخاري

«اي هذا باب في بيان تزويج النبي .. صَلَّى الله تعالى عليه وسلم .. خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ..

«تجتمع مع رسول الله .. صَلَّى الله تعالى عليه وآله وسلم .. في قصي ..

«وهي من أقرب نسائه اليه في النسب ..

«كانت خديجة تدعى في الجاهلية الطاهرة ..

«تزوجها رسول الله .. صَلَّى الله تعالى عليه وسلم .. في سنة خمس وعشرين من مولده -في قول الجمهور-

«وقال ابو عمر: كانت إذ تزوجها رسول الله .. صَلَّى الله تعالى عليه وسلم .. بنت اربعين سنة ..

«وأقامت معه أربعاً وعشرين سنة ..

«و توفيت وهي بنت أربع وستين سنة وستة اشهر ..

«و توفيت قبل الهجرة .. بثلاث سنين ..

«يقال أنها توفيت بعد موت ابي طالب بثلاثة ايام ..

«توفيت في شهر رمضان ..

«و دفنت في الحجون.»!!

ص: 142

أقول: هذا ما تيسر لنا جمعه في هذا الباب: كيف تمّ الزواج المبارك؟!.

أمّا ما وراء ذلك .. من ضرب الدفوف .. وذبح الذبائح .. فهو لا يقدّم ولا يؤخّر .. ولا يغني في الموضوع شيئاً ..

إنما الأمر الذي يعني البشرية إلى أن تقوم الساعة ..

أنّ محمداً .. صلّى الله عليه وسلم .. تزوج خديجة بنت خويلد ..

أما المشاعر .. أما الأحاسيس .. التي كانت بينهما ..

فإنها حرّم أقدس .. يتحتم على الجميع .. أن يُمسكوا عن مجرد التفكير فيها.

ذلك شيء يسير .. عن اشرف زواج .. كان أو يكون!!

ص: 143

خمس عشرة سنة .. في ظلال حياة .. زوجية سعيدة؟!!

ص: 145

من المشهور .. أن رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. تزوج خديجة .. عليها السلام .. وهو ابن خمس وعشرين.

وأنه .. صَلَّى الله عليه وسلم .. بُعث وهو في الأربعين ..

فهناك من بدء الزواج .. إلى بدء الوحي .. خمس عشرة سنة ..

فكيف كانت حياته .. صَلَّى الله عليه وسلم خلال تلك الفترة؟!!

وماذا كان فيها من أحداث؟!!

اولاده .. صَلَّى الله عليه وسلم .. من خديجة .. عليها السلام؟!!

جاء في (أسد الغابة):

«قال قتادة: ولدت له خديجة غلامين .. وأربع بنات ..

ص: 147

«القاسم .. وبه كان يكنى .. وعاش حتى مشى ..

«وعبدالله .. مات صغيراً.»

«وقال الزبير: ولدت لرسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. القاسم وهو أكبر ولده ..

«ثم زينب ..

«ثم عبد الله .. وكان يقال له الطيب .. ويقال له الطاهر ..

«ثم مات القاسم بمكة .. وهو أول ميت مات من ولده ..

«ثم عبدالله مات أيضاً بمكة.»

«وقال الكلبي: ولد عبدالله في الإسلام .. وكل ولده منها ولد قبل الإسلام.»

«وقال الزبير: ان خديجة بنت خويلد .. ولدت لرسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. القاسم .. والطاهر .. والطيب .. وعبدالله .. و

زينب .. وزُفَيَّة .. وأم كلثوم .. وفاطمة.»

اقول: الراجح أن الطاهر و الطيب كانا يطلقان على «عبدالله» باعتبار أنه ولد في الاسلام -على قول-

ص: 148

وقال ابن هشام:

«فولدت لرسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم وَلَدَهُ كُلَّهُمْ .. إلا إبراهيم.

«القاسم .. وبه كان يُكنى .. صَلَّى الله عليه وسلم .. و الطاهر .. و الطيب(1) .. و زينب .. و زُقيّة .. و ام كلثوم .. و فاطمة .. عليهم السلام

..

قال ابن هشام:

«أكبر بنيه القاسم .. ثم الطيب .. ثم الطاهر .. و أكبر بناته زُقيّة .. ثم زينب .. ثم أمّ كلثوم .. ثم فاطمة.»

أقول: الراجح من أقوال اخرى ان أكبر بناته زينب .. ثم رقية .. ثم أم كلثوم .. ثم فاطمة.

ترتيب المواليد!؟

القاسم .. و كان صَلَّى الله عليه وسلم في نحو الثامنة و العشرين ..

زينب .. و كان صَلَّى الله عليه وسلم في نحو الثلاثين من عمره ..

ص: 149

1- المعروف أنهما لقبان لعبد الله.

رُقِيَّة .. و كان صَلَّى الله عليه و سلم في نحو الثالثة و الثلاثين ..

أم كلثوم .. و كان صَلَّى الله عليه و سلم في نحو الرابعة و الثلاثين ..

فاطمة .. و كان صَلَّى الله عليه و سلم في نحو الخامسة و الثلاثين ..

بعد عشر سنوات من الزواج ..

عبدالله .. (و هو الطيب و الطاهر) .. و كان صَلَّى الله عليه و سلم قد قارب الحادية و الأربعين ..

و كانت خديجة قد قاربت السادسة و الخمسين من عمرها ..

وقيل: (ولد عبدالله في الإسلام .. و كل ولده منها ولد قبل الإسلام.)

توفي قبل أن يتم مدة الرضاع .. و فرح المشركون بموته و قال سفيههم:

«دعوه فإنما هو رجل أبترا لا عقب له .. لو هلك انقطع ذكره .. و استرختم منه»!!

اقول: يمكن بالتأمل في مختلف الروايات أن ترتب الذرية المباركة هكذا ..

القاسم .. ثم زينب .. ثم رُقِيَّة .. ثم أم كلثوم .. ثم فاطمة .. ثم عبدالله ..

فإذا اخذنا برواية ابن إسحاق ..

(فولدت لرسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم . وَلَدَهُ كُلَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ).

كان معنى هذا أن هؤلاء الستة وُلِدُوا خلال الخمس عشرة سنة .. من بدء الزواج إلى بدء الوحي .. هذا من ناحية الميلاد ..

ويذهب ابن اسحاق أن الذكور هلكوا قبل الاسلام ..

(و أما بناته فأدركن الاسلام .. فهاجرن معه و اتبعنه و آمنّ به).

و الراجع أن القاسم مات قبل الاسلام .. و أن عبدالله (الطيب و الطاهر) مات في الاسلام صغيراً ..

هذا ما أمكن لنا استخلاصه من الأقوال الواردة في هذا السبيل .. و الله أعلم!!

ولكن ماذا عن الأحداث العامة التي شارك فيها .. صَلَّى الله عليه وسلم .. خلال هذه السنين؟!

لعل أهم هذه الأحداث كان .. هو هدم قريش الكعبة و بناءها ..

ص: 151

وقد مرّ في فصل سابق .. كيف احتكمت قريش إلى أول داخل المسجد .. فكان رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. هو أول داخل ..

وكيف قالوا: هذا الأمين .. رضينا .. هذا محمد .. الخ ..

وكان ذلك سنة خمس و ثلاثين من مولده .. صلّى الله عليه وسلم ..

أي بعد مرور عشر سنوات من الزواج الكريم ..

أما كيف كانت حياة الزوجين الشريفين .. وكيف كانت العلاقة بينهما؟!

فإنّ خير ما يُقال في هذا الأمر أن نقول ..

ما ظنك بزوجه .. هو أشرف .. وأرقى .. وأعظم .. خلّق الله؟!

وما ظنك بزوجة .. هي التي وقع اختيار الله تعالى عليها .. لتكون زوجة لرسوله .. صلّى الله عليه وسلم؟!

ما ظنك بزوجين ليس كمثلهما زوجان على الاطلاق؟!

كانت حياتهما الزوجية .. أرقى حياة ..

الحبّ المتبادل ..

الاخلاص المتبادل ..

ص: 152

التعاطف المتبادل ..

التراحم المتبادل ..

بل الأمر أعلى من ذلك ..

إنّ رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم ..

وإنها أم المؤمنين .. خديجة .. عليها السلام ..

كل ما يُقال في وصف حياتهما الزوجية .. من ثناء .. هو دون الحقيقة ..

فأللهم .. صلِّ .. وسلِّم .. على خير البرية ..

وسلام على زوجه .. الطاهرة الزكية!!

ص: 153

خديجة .. عليها السلام .. في أعظم .. لحظة في حياتها!!

ص: 155

أعظم لحظة .. في حياة أم المؤمنين .. خديجة بنت خويلد؟!!

في رأيي .. هي اللحظة التي دخل فيها .. رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. على خديجة، يرجف فؤاده .. فقال زمّلوني .. زمّلوني ..

فقلت خديجة: كلا .. والله ما يُخزيك الله أبداً!!

نعم .. هذه هي اللحظة الكبرى، العظمى، من حياتها .. جاءها يرجف فؤاده ..

فاعظمته .. ووقّرتة .. وثبتته .. وأنسته .. ولطفته .. وأقسمت: والله .. ما يُخزيك الله أبداً!!

وها هنا سر الاختيار!!

لماذا اختارها الله هي بالذات ... زوجاً له .. من دون النساء؟!!

من أجل هذه اللحظة الفاصلة .. في حياة البشر إلى أن تقوم الساعة!!

المراد سيدة عظيمة، تقف إلى جوار النبي العظيم، تشدّ من أزره، في أخطر لحظة ..

لحظة بدء الوحي ..

شيء جديد .. في حياته ..

فمن يفهمه، و من يُصدّقه، و من يُعيّنه؟!!

إنها خديجة .. التي وقع عليها الاختيار الإلهي لأداء ذلك الدور الفذ .. الذي لا مثل له!!

فكيف كان ذلك؟!!

بدء الوحي

عن عائشة أم المؤمنين .. أنها قالت:

«أول ما بُدئ به رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. من الوحي .. الرؤيا الصالحة في النوم ..

«فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح

ثم حُبب إليه الخلاء ..

ص: 158

«وكان يخلو بغار حراءٍ ..

«فيتحنّث فيه - وهو التعبُّدُ - الليالي ذواتِ العددِ .. قبل ان ينزعَ إلى أهله .. ويتزوّدُ لذلك ..

«ثم يرجعُ إلى خديجة، فيتزوّدُ لمثلها ..

«حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حراءٍ ..

«فجاءه الملكُ، فقال . اقرأُ ..

«قال: ما أنا بقارىءٍ ..

«قال: فأخذني فغطّني .. حتى بلغَ مني الجهدَ .. ثم أرسلني ..

«فقال: اقرأُ ..

«قلتُ: ما أنا بقارىءٍ ..

«فأخذني .. فغطّني الثانيةً .. حتى بلغَ مني الجهدَ .. ثم أرسلني ..

«فقال: اقرأُ ..

«فقلتُ: ما أنا بقارىءٍ ..

«فأخذني .. فغطّني الثالثةً .. ثم أرسلني ..

ص: 159

«فقال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ..»

«فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. يَرْجِفُ فؤَادَهُ ..

«فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-

«فَقَالَ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي ..

«فَزَمَّلُوهُ .. حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ..

«فَقَالَ لَخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ:

«لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ..

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا .. وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا .. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ .. وَتَحْمِلُ الْكَلَّ .. وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ .. وَتَقْرِي الضَّيْفَ .. وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ..

«فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى .. ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ..

«وَكَانَ أَمْرًا تَنْصَرَفِي الْجَاهِلِيَّةِ ..

«وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ .. فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ..

«وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ..

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ .. اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ ..

«فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي .. مَاذَا تَرَى؟»

«فَاخْبِرُهُ رَسُولَ اللَّهِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. خَبِرَ مَا رَأَى ..»

«فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ..»

«يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا ..»

«لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا .. إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ..»

«فَقَالَ رَسُولَ اللَّهِ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ مُخْرَجِي هُمْ؟»

«قَالَ: نَعَمْ .. لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جَنَّتَ بِهِ إِلَّا عَوْدِي .. وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ انصُرْكَ نَصْرًا مُؤَدَّرًا ..»

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ ..»

«وَفَتَرَ الْوَحْيِيَّ ..»

«قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: وَاخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ .. أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِي، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ:

«بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي .. إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ .. جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ

السماء والأرض، فرعبتُ منه... فرجعتُ فقلتُ: زمّلوني.. فانزلَ اللهُ تعالى.. «يا أيها المُدَثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ..» إلى قوله: «والرّجَزَ فَاهْجُرْ..»

«فحمي الوحي وتتابع..»

[صحيح البخاري]

«يتزود» اتخاذ الزاد، وهو الطعام الذي يستصعبه المسافر..

«فغطني»، ضغطني وعصرني، وغط في الحديث: الخنق..

«الجهد» الغاية والمشقة..

«علّق» هو الدم الغليظ..

«يرجف فؤاده» يخفق ويضطرب، والفؤاد هو عين القلب..

«الرّوع»، هو الفرع..

«ما يُخزيك الله» من الخزي وهو الفضيحة والهوان..

«لتصل الرحم» تحسن إلى قراباتك..

«وتحمل الكلّ» تنفق على الضعيف واليتيم.. لأن الكلّ من لا يستقلّ بأمره..

ص: 162

«و تكسب المعدوم»، تكسب غيرك المال المعدوم، اي تعطيه له تبرعاً ..

«و تقرى الضيف»، تكرم الضيف ..

«قد تنصّر» صار نصرانياً و ترك عبادة الأوثان ..

«و كان يكتب الكتاب العبرانيّ، كان يكتب من الانجيل بالعبرانية إن شاء، و بالعربية إن شاء ..

«هذا الناموس»، و هو صاحب السر، و هو هنا جبريل عليه السلام، و أهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام .. الناموس الأكبر

«جَدَعاً» شاباً قوياً حتى ابالغ في نصرتك ..

«مؤزرأ» قوياً بليغاً ..

«لم ينشب» لم يلبث ..

«و فتر الوحي: احتبس ..

«ما انا بقارىء»، ما أحسن القراءة .. او لست بقارىء البتة ..

«فرجع بها» اي بالآيات و هي قوله «اقرأ باسم ربك» ..

«يا ليتني فيها»، أي في أيام النبوة ..

ص: 163

«اقرأ» أمر بإيجاد القراءة مطلقاً .. لا تختص بمقروء دون مقروء ..

«باسم ربك»، أي اقرأ مفتتحاً «باسم ربك» اي قل بسم الله الرحمن الرحيم .. ثم اقرأ ..

«اقرأ باسم ربك الذي» إلى قوله «ما لم يعلم» هذا صدر ما أنزل على رسول الله .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. يوم حراء .. ثم أنزل آخرها بعد ذلك و ما شاء الله ..

«خلق الانسان»، إيدان بأن الانسان أشرف المخلوقات، ثم الامتنان عليه بقوله «علم الانسان»، يدل على ان العلم اجلّ النعم ..

«علم بالقلم»، إشارة إلى العلم التعليمي ..

«علم الانسان ما لم يعلم» إشارة إلى العلم اللدني ..

«لقد خشيت على نفسي»، فأجابت خديجة بكلام فيه قسم و تأكيد .. وذلك إزالة لحييرته و دهشته ..

«أو مخرجي هم؟!»، و العادة إن كل ما أتى للنفوس بغير ما تحب و تألف .. و إن كان ممن يحب و يعتقد .. يعافه و يطرده ..

ص: 164

-لِمَ ابتدئ عليه الصلاة و السلام بالرؤيا اولاً؟.

-و أجب بأنه ابتدئ بها لئلا- يفجأه الملك، و يأتيه بصريح النبوة و لا تحتملها القوى البشرية .. فبدئ بأوائل خصال النبوة، و تبشير الكرامة، من صدق الرؤيا، مع سماع الصوت، و سلام الحجر و الشجر عليه بالنبوة، و رؤية الضوء .. ثم اكمل الله له النبوة بإرسال الملك في اليقظة، و كشف له عن الحقيقة كرامة له.

-لِمَ حبب اليه الخلوة؟

-أجب بأن معها فراغ القلب ..

و هي معينة على التفكير، و البشر لا ينتقل عن طبعه إلا بالرياضة البليغة، فحبب اليه الخلوة لينقطع عن مخالطة البشر، فينسى المألوفات من عاداته، فيجد الوحي منه مراداً سهلاً .. و يقال كان ذلك اعتباراً و فكرة كاعتبار ابراهيم، عليه السلام، لمناجاة ربه و الضراعة اليه ليريه السبيل إلى عبادته ..

متى كان نزول المَلَك عليه؟

-رُوي ان نزول المَلَك عليه بحراء، يوم الاثنين، لسبع عشرة خلت من رمضان .. ورسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. يومئذ ابن أربعين سنة ..

-ما الحكمة في غطّه ثلاث مرات؟

-ليظهر في ذلك الشدة والاجتهاد في الأمور، وأن يأخذ الكتاب بقوة، وبترك الأناة، فإنه أمر ليس بالهويناء، وكرره ثلاثا مبالغة في الثبوت ..

-ما الخشية التي خشىها رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. حيث قال: لقد خشيت على نفسي؟

-قيل: خاف من الموت من شدة الرعب، أو خاف ان لا يقوى على مقاومة هذا الأمر، و لا يطيق حمل أعباء الوحي، أو العجز عن النظر إلى المَلَك و خاف ان تزهق نفسه و ينخلع قلبه لشدة ما لقيه عند لقائه .. او خاف من قومه أن يقتلوه .. او خاف مفارقة الوطن بسبب ذلك، أو اخبار عن الخشية التي حصلت له على غير مواطنة .. بغتة .. كما يحصل للبشر إذا دهمه أمر لا يعهده ..

-من أين علم رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. أن الجائي اليه،

ص: 166

جبريل عليه السلام لا الشيطان، وبم عرف انه حق لا باطل؟

-أجيب بأنه كما نصب الله لنا الدليل على ان الرسول عليه السلام صادق لا كاذب، وهو المعجزة، كذلك نصب للنبي .. صلّى الله عليه و سلم .. دليلاً على أن الجائي اليه ملك لا شيطان، وأنه من عند الله لا من غيره ..

-ما الحكمة في فتور الوحي مدة؟

-أجيب بأنه إنما كان كذلك ليذهب ما كان عليه الصلاة و السلام وجده من الروع .. و ليحصل له التشوق إلى العود ..

-ما كان مدة الفترة؟

-أجيب بأنه وقع في تاريخ أحمد بن حنبل .. أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين ..

-ما الحكمة في تخصيصه عليه الصلاة و السلام التعب بجراء من بين سائر الجبال؟

-لأنه يرى بيت ربه منه و هو عبادة ..

ص: 167

-فيه دليل للجمهور أن سورة «اقرأ باسم ربك» أول ما نزل ..

-فيه أن مكارم الأخلاق .. و خصال الخير سبب للسلامة من مصارع الشر و المكاره .. فمن كثر خيره حسنت عاقبته، و رجي له سلامة الدين و الدنيا ..

-فيه أنه ينبغي تأنيس من حصلت له مخافة، و تبشير، و ذكر أسباب السلامة له ..

-فيه ابلغ دليل .. على كمال خديجة .. رضي الله تعالى عنها .. و جزالة رأيها .. و قوة نفسها .. و عظم فقهها .. و قد جمعت جميع أنواع اصول المكارم و أمهاتها فيه عليه السلام .. لأن الاحسان إما إلى الاقارب، و ما الى الاجانب .. و إما بالبدن و اما بالمال .. و إما على من يستقل بأمره و إما على غيره !!!

-خديجة بنت خويلد .. أم المؤمنين .. تزوجها رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. وهو ابن خمس وعشرين سنة .. وهي أم أولاده كلهم،

خلا إبراهيم فمن مارية .. ولم يتزوج غيرها قبلها .. ولا عليها .. حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين -على الأصح- فأقامت معه أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر، ثم توفيت .. وكانت وفاتها بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام ..

وهي أول مَنْ آمَنَ من النساء .. باتفاق .. بل أول مَنْ آمَنَ مطلقاً!!!

اقول: هذا حديث الامام البخاري في صحيحه عن بدء الوحي ..

و كانت تلك مقتطفات من شرح الإمام العيني .. على ذلك الحديث الفذ العظيم ..

لقد كانت تلك هي أعظم لحظة في حياة خديجة .. عليها السلام ..

اللحظة التي جاءها فيها، رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. يخبرها بما رأى ..

فقالت: كلا .. والله .. ما يُخزبك الله أبداً!!

كانت و هي تنطق بهذا القول الخالد، تنطق حقاً و صدقاً ..

فارتفعت بذلك فوق نساء العالمين جميعاً.

«خير نساءها خديجة بنت خويلد ..»!!!

كانت في تلك اللحظة .. أول من آمن على الإطلاق !!

وَجَدَ فيها .. رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. صوتاً يؤمن به .. أنه رسول الله حقاً و صدقاً ..

فحازت .. عليها السلام .. في تلك اللحظة .. درجة أسبق السابقين إلى الاسلام ..

شرف؟! .. ما أعظمه من شرف؟! ..

و لحظة ما أعظمها من لحظة؟! ..

لحظة: «كلا .. والله؟. ما يُخزبك الله أبداً»!!!

ص: 170

ثورة.. قريش.. المضادة!؟

ص: 171

الانبياء

كل الأنبياء .. بلا استثناء .. أشد الناس بلاء!!

لماذا؟!!

لأنهم أعلى الناس مقاماً ..

و اكبر الناس عقولاً ..

و ازكى الناس نفوساً ..

فتحتم أن تكون الضريبة المفروضة عليهم .. صلوات الله عليهم .. اعظم الضرائب على الاطلاق ..

ذلك أن كل عطاء يقابله بلاء ..

فمن حيث أن عطاءهم أعظم العطاء .. استوجب أن يكون بلاء هم أعظم البلاء ..

حتى لا يكون للناس حجة عند الله ..

فيأتي صعلوك و يقول: لماذا أعطيتهم؟!!

ص: 173

الجواب: القينا عليهم من البلاء ما يوازي ما أعطيناهم من العطاء!!

هنالك يخنس الصعاليك .. ويطأطئون خزايًا!!

فكيف ورسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. سيد الأنبياء ..

كيف يكون مقدار ما حَمَلَ من البلاء؟!!

قال تعالى:

«وكان فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا»..

إذن .. حتمًا أن يكون البلاء كذلك عظيمًا!!

كيف كان ذلك؟!!

كان محمد .. عندهم .. قبل أن يُبعث .. الأمين ..

فلما بعثه الله اليهم .. ثارت ثائرتهم .. وأجمعوا أمرهم في النهاية أن يقتلوه!!

وارتفعت أصواتهم القبيحة .. كأنهم الحمير المدعورة .. تتنادى بضرورة إسكات صوت محمد!!

فما استطاعوا أن يسكتوه .. و ما استطاعوا له تحويلاً!!

لقد أعلن النبي .. صَلَّى الله عليه وسلم .. ثورة الحق ..

فأعلنوا عليه الثورة المضادة!!

ص: 174

أعلنوها في عنف و كبرياء .. و صلف و غباء!!

أعلن النبي الأعظم اليهم .. أعلى ثورة في التوحيد ..

ثورة .. لا إله إلا الله!!

فواجهوها بثورة مضادة:

«أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا .. إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ»!!

هكذا بلغوا من الغباء!!

و أعلن النبي الأكرم اليهم .. أرقى ثورة في المساواة ..

ثورة ..

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»

فواجهوها .. بثورة مضادة .. أنهم هم السادة .. و على العبيد ألا يرفعوا رأساً!!

و هكذا .. نُكِسُوا عَلَى رِءُوسِهِمْ .. فلا يفقهون قولاً!!

لماذا وقفت قريش تضاد الدعوة .. و كان الظن أن تكون أول من يناصرها؟!

لأن الاسلام جاء يُسْقِطُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَوْهَامٍ مُقَدَّسَةٍ .. و ضلالات متعفنة ..

ص: 175

و الانسان لا يتحول عن سلوكه إلا في صعوبة بالغة ..

فلما عجزت قريش و أعيثها الحيل .. تناذروا بتعذيب من تابع محمداً من المستضعفين ..

و لجأوا في ذلك إلى أخس الأساليب .. و أدنا المؤامرات ..

و كان من تلك المؤامرات .. أن الحت أم جميل .. زوجة أبي لهب .. على ولديها .. عتبة و عُنَيْبَة .. ان يطلقا ابنتي رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. رُقَيْيَة .. و أم كلثوم ..

فطلّقاها .. و عادا إلى بيت أبيهما .. بيت خديجة .. عليها السلام،.

لجأت أم جميل إلى ذلك .. كيداً و إغاظَة و انتقاماً!!

يظنون ذلك .. والله يريد أمرا .. غير ذلك ..

يريد ان يطهرهما .. من معاشرَة أعداء الله!!!

ص: 176

عندما قالت خديجة .. لرسول الله صلى الله عليه و سلم .. اني لأرجو أن تكون .. نبي هذه الأمة!؟!

ص: 177

ابن هشام:

مبعث النبي صَلَّى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم تسليماً

قال ابن إسحاق:

فلما بلغ محمدٌ رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. اربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، وكافةً للناس بشيراً، وكان الله تبارك و تعالى قد اخذ الميثاق على كلِّ نبيٍّ بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، واخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كلِّ مَنْ آمن بهم وصدقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحقّ فيه.

ص: 179

يقول الله تعالى لمحمد صَلَّى الله عليه وسلم:

«وإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَتَّبِعُنَّهُ، قَالَ: أَقْرَزْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي» ..

أي ثقّل ما حمّلتكم من عَهْدِي.

«قَالُوا أَقْرَزْنَا».

«قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له، و النصر له ممن خالفه، و ادّوا ذلك إلى من آمن بهم و صدّقهم من اهل هذين الكتابين.

اول ما بدى به الرسول صَلَّى الله عليه وسلم

الرؤيا الصادقة

قال ابن إسحاق:

ص: 180

فذكر الزُّهري عن عروة بن الزُّبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدّثته:

أنّ أوّل ما بُدئ به رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم من النّبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرُّؤيا الصادقة، لا يرى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده.

تسليم الحجارة و الشجر عليه صلّى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق:

وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سُفيان بن العلاء ابن جارية الثَّقفي، و كان واعيةً (1)، عن أهل العلم:

أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم حين اراده الله بكرامته، و ابتدأه بالنبوة،

ص: 181

1- واعية: حافظاً، و التاء فيه للمبالغة.

كان إذا خرج لحاجته أبعَدَ حتَّى تحسَّرَ (1) عنه البيوتُ ويُفضي إلى شعاب (2) مكة وُبطون أوديتها، فلا يمرُّ رسول الله صلَّى الله عليه و سلم بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. قال: فيلتفت رسول الله صلَّى الله عليه و سلم، حوله و عن يمينه و شماله و خلفه، فلا يرى إلا الشجر و الحجارة. فمكث رسول الله صلَّى الله عليه و سلم كذلك يرى و يسمع، ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله، و هو بحراء في شهر رمضان.

ابتداء نزول جبريل عليه السلام

قال ابن إسحاق:

و حدَّثني وَهبُ بنُ كيسان، مولى آل الزبير، قال:

سمعتُ عبد الله بن الزُّبير و هو يقول لعُبَيْد بن عُمير بن قَتادة الليثي: حدَّثنا يا عُبَيْد، كيف كان بدء ما ابتدئ به،

ص: 182

1- تحسر عنه البيوت: تبعده عنه و يتخلى عنها.

2- الشعاب: المواضع الخفية بين الجبال.

رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم من النبوة، حين جاءه جبريل عليه السلام؟ قال: فقال: عبيدٌ -وأنا حاضرٌ يُحدِّث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس-: كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، يُجاور(1) في حِراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنَّث به قريش في الجاهلية، و التحنث التبرُّر.

قال ابن إسحاق:

و حدثني وهب بن كيسان قال:

قال عبيد: فكان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، يُجاور ذلك الشَّهرَ من كل سنةٍ، يُطعم مَنْ جاءه من المساكين، فإذا قضى رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك، كان أوَّل ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبْعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهرُ الذي أراد اللهُ تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه اللهُ تعالى فيها؛ وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم إلى حِراء، كما كان يخرج لجواره و معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه اللهُ فيها برسالته، و رَحِم العبادَ بها،

ص: 183

1- يجاور: يعتكف.

جاءه جبريلُ عليه السلام بأمر الله تعالى.

قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم:

فجاءني جبريلُ، وأنا نائمٌ، بَنَمَطٍ (1) من ديباج فيه كتابٌ، فقال اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغَتَّني (2) به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ؛ قال: قلت: ما أقرأ؟

قال: فغَتَّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ؛ قال، قلت: ماذا أقرأ؟

قال: فغَتَّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ؛ قال: فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي ..

فقال:

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» ..

ص: 184

1- النمط: وعاء كالسقط.

2- الغت: حبس النفس.

قال: فقرأتها. ثم انتهى فانصرف عني و هببتُ من (1) نومي، فكأنما كتبتُ في قلبي كتاباً.

قال: فخرجتُ حتى إذا كنتُ في وَسَط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله و انا جبريل؛ قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظرُ، فإذا جبريلُ في صورة رجل صافَّ قَدَمَيْهِ في افق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله و انا جبريل. قال: فوقفت انظر اليه فما أتقدّم و ما أتأخر، و جعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا انظر في ناحية منها إلا رأيتُه كذلك.

فما زلتُ واقفا ما اتقدم أمامي و ما ارجع ورائي ..

حتى بعثتُ خديجةً رُسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة و رجعوا اليها و انا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني.

ص: 185

1- في حديث عروة ما يدل ظاهره على أن نزول جبريل حين نزل بسورة «اقرأ» كان في اليقظة.

رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يقص على خديجة ما كان من أمر جبريل معه!

وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي حتى أتيتُ خديجةً فجلستُ إلى فخذها مُضيفاً⁽¹⁾ إليها. فقالت: يا أبا القاسم، اينَ كنتَ؟ فوالله لقد بعثتُ رُسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيتُ: فقالت: أبشر يا بنَ عمِّ واثبتْ، فوالذي نفس خديجةً بيده إنني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة.

ص: 186

1- ملتصقاً

خديجة بين يدي ورقة تحدثه حديث رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى وَرَقَةَ بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى بن قُصَي، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من اهل التوراة والانجيل.

فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، انه رأى وسمع.

فقال ورقة بن نوفل: قُدُّوس قُدُّوس (1)، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس (2) الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقول لي له: فليثبت.

ص: 187

1- قدوس قدوس: أي طاهر طاهر، واصله من التقديس، وهو التطهير.

2- الناموس (في الأصل): صاحب سر الرجل في خيره وشره، فعبر عن الملك الذي جاء بالوحي به .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فاخبرته بقول ورقة ابن نوفل.

فلما قضى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم جواره و انصرف، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها، فلقية ورقة بن نوفل، و هو يطوف بالكعبة، فقال: يا بن أخي اخبرني بما رأيت و سمعت.

فأخبره رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم ..

فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، و لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى: وَ لَتَكْذِبَنَّ و لَتُؤْذِيَنَّ و لَتُخْرِجَنَّ و لتقاتلنه(1) و لئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرأ يعلمه.

ثم أدنى رأسه منه، فقبل يافوخه(2)، ثم انصرف رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إلى منزله.

ص: 188

1- الهاء في هذه الأفعال للسكت

2- اليافوخ: وسط الرأس.

قال ابن إسحاق:

وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير:

أنه حدث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اي ابن عم، أستطيع أن تُخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فاخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني. قالت: قم يا بن عم فاجلس على فخذي اليسرى. قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى. قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذهما اليمنى. فقالت: هل تراه! قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري. قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم.

ص: 189

قال: فتحسرت و التقت خمارها و رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم جالس في حجرها. ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا. قالت يا بن عم، اثبت و ابشر، فوالله إنه لَمَلَكٌ و ما هذا بشيطان.

قال ابن إسحاق:

و قد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث، فقال:

قد سمعتُ أمي فاطمة بنتُ حسين تحدّث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أنني سمعتها تقول: أدخلتُ رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بينها و بين دُرْعها، فذهب عند ذلك جبريل. فقالت لرسول الله صَلَّى الله عليه و سلم إن هذا لَمَلَكٌ و ما هو بشيطان.

ابتداء تنزيل القرآن!

قال ابن إسحاق:

فابتدىء رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بالتنزيل في شهر رمضان.

يقول الله عزّ وجل:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْقُرْآنِ».

ص: 190

وقال الله تعالى:

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» .

وقال الله تعالى:

« حَمَّ وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»

وقال تعالى:

«إِنْ كُنْتُمْ ءَأَمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ .» .

و ذلك مُلتقى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم و المُشركين ببدر .

قال ابن إسحاق:

و حدثني أبو جعفر محمد بن علي بن حسين: أن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم التقى هو و المُشركون ببدر يوم الجمعة، صبيحة سابع عشرة

ص: 191

من رمضان.

قال ابن إسحاق:

ثم تتامّ الوحيُّ إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلم، و هو مؤمنٌ بالله مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، و تحمل منه ما حمّله على رضا العباد و سخطهم، و النبوءة أثقال و مؤنة، لا يحملها و لا يستطيع بها إلا اهل القوة و العزم من الرسل بعون الله تعالى و توفيقه، لما يلقون من الناس، و ما يُرد عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه و تعالى.

قال: فمضى رسول الله صلّى الله عليه و سلم على امرِ الله، على ما يلقى من قومه من الخلاف و الاذى.

اسلام خديجة بنت خويلد!

و آمنت به خديجة بنتُ خُوَيْلِد، و صدقت بما جاءه من الله، و وازرتَه على أمره، و كانت أوّل من آمن بالله و برسوله، و صدّقت بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن نبيه صلّى الله عليه و سلم، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه و تكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرّج الله

ص: 192

عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، و تصدقه و تهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى.

تبشير الرسول لخديجة بيت من قصب!

قال ابن إسحاق:

و حدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

قال ابن هشام: القصب (ههنا) اللؤلؤ المجوف.

ص: 193

جبريل يقرئ خديجة السلام!

قال ابن هشام:

وحدثني مَنْ اثق به، ان جبريل عليه السلام أتى رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، فقال: أقرئ خديجةَ السلامَ من ربها. فقال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم: يا خديجة، هذا جبريلُ يُقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: اللهُ السلامُ، و منه السلام، و على جبريل السلام.

فترة الوحي و نزول سورة الضحى!

قال ابن إسحاق:

ثم فتر الوحي عن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى، يُقسم له

ص: 194

ربه، و هو الذي اكرمه بما اكرمه به، ما ودّعه و ما قلاه.

فقال تعالى:

«و الضحى و اللیل إذا سجى . ما ودّعك ربك و ما قلى».

يقول: ما صرّمك فتركك، و ما أبغضك منذ أحبّك.

«و للآخرة خیر لك من الأولى».

اي لما عندي من مَرّجعك إليّ، خیر لك مما عبّلت لك من الكرامة في الدنيا.

«و لسوف يُعطيك ربك فترضى».

من النّصر في الدنيا و الثواب في الآخرة.

«ألم يجدك يتيماً فأوى . و وجدك ضالاً فهدى . و وجدك عائلاً فأغنى».

يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره، و منه عليه في يّتمه و عيّلته و ضلّالته، و استنقذه من ذلك كله

برحمته.

ص: 195

أقول: هذه دلائل عبقرية خديجة بنت خويلد ..

- يا أبا القاسم .. أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رُسلي في طلبك .. حتى بلغوا مكة، ورجعوا لي!!

انظر إلى جمال الحوار، ورقة السؤال!!

ثم يحدثها رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، بالذي رأى ..

فتقول: أبشر يا بن عمّ ..

: واثبت ..

: فوالذي نفس خديجة بيده ..

. إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة!!

أقول: هذا المشهد الخالد .. مشهد تنفرد به خديجة، عليها السلام، من دون نساء العالم إلى يوم القيامة!!

مشهد: أَوَّلَ مَنْ آمَنَ عَلَى الإِطْلَاق!!

مشهد: «أبشُر يا بن عمّ واثبت»!!

إنها، تقف من ورائه، كالطود الشامخ ..

تُظَلِّه بثباتها .. وحنانها .. وإيمانها اللانهائي ..

كانت في تلك اللحظة .. أعظم نساء العالمين ..

ص: 196

تقف من وراء أعظم رسول إلى العالمين ..

هنالك وهي تقول و تُقسم ..

فوالذي نفس خديجة بيده .. إني لأرجو ان تكون نبيّ هذه الأمة ..

هنالك تالأأت عبقرية خديجة .. عليها السلام ..

و ثبت للناس جميعاً، لماذا اختارها الله تعالى .. زوجاً لنبيّه .. صلّى الله عليه وسلم .. في تلك المرحلة العظيمة من مراحل الدعوة العظيمة؟!!

ص: 197

خديجة .. أوّل من توضأ .. و أوّل من صلى!؟

ص: 199

أخرى من فضائل أم المؤمنين .. خديجة .. عليها السلام ..

أنها أول من صلى .. وأول من توضع .. من النساء على الاطلاق!!

قال ابن هشام:

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت:

«افتُرِضت الصلاة على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم .. أول ما افتُرِضت عليه ركعتين .. كل صلاة، ثم إن الله تعالى اتمها في الحضر اربعاً .. وأقرّها في السفر على فرضها الأول .. ركعتين ..»

ص: 201

تعليم جبريل .. الرسول .. صَلَّى الله عليه وسلم

الوضوء والصلاة

وحدثني بعض أهل العلم:

«أن الصلاة حين افتضت على رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي .. فانفجرت منه عين ..

«فتوضأ جبريل عليه السلام .. ورسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. ينظر اليه ..

«ليريه كيف الطهور للصلاة؟»

«ثم توضأ رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. كما رأى جبريل تَوَضَّأ ..

«ثم قام به جبريل .. فصلى به ..

«وصلى رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. بصلاته ..

«ثم انصرف جبريل عليه السلام.»»

ص: 202

تعليم الرسول .. صلى الله عليه وسلم ..

خديجة .. الوضوء و الصلاة

«فجاء رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. خديجة ..

«فتوضأ لها ..

«ليريهما كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل.

«فتوضأت ..

«كما توضأ لها رسول الله .. عليه الصلاة والسلام.

«ثم صلى بها رسول الله .. عليه الصلاة والسلام ..

«كما صلى به جبريل ..

«وفصلت بصلاته.»

ص: 203

تعيين جبريل .. اوقات الصلاة .. للرسول .. صلى الله عليه و سلم ..

عن ابن عباس قال:

«لما افترضت الصلاة على رسول الله .. صلى الله عليه و سلم .. أتاه جبريل عليه السلام ..

«فصلى به الظهر حين مالت الشمس .. ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله .. ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس .. ثم صلى به
العشاء الآخرة حين ذهب الشفق .. ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ..

«ثم جاءه ..

«فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله.

«ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ..

«ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ..

«ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ..

ص: 204

«ثم صلى به الصبح مُسْتَفِرّاً غيرَ مشرق ..

»ثم قال: يا محمد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم و صلاتك بالأمس.»

أقول، ها هنا فضيلتان للطاهرة، عليها السلام ..

الأولى .. أنها أوّل مَنْ توضأ على الإطلاق!!

الثانية .. أنها أوّل مَنْ صلى على الإطلاق!!

فهي تسبق جميع الرجال، و جميع النساء، في هاتين الفضيلتين، إلى يوم القيامة!!

فان قيل: مَنْ أوّل مَنْ توضأ من هذه الامة؟!

قيل: خديجة .. عليها السلام!!

وإن قيل: مَنْ أوّل مَنْ صلى في الاسلام؟!

قيل خديجة .. عليها السلام!!!

ص: 205

اهل البيت الكريم .. يؤمنون تبعاً .. بعد خديجة .. عليها السلام ..!؟

ص: 207

أكرم الله تعالى، نبيّه، صلّى الله عليه وسلم، بإيمان زوجته، خديجة .. عليها السلام ..

فكانت له نعم الصاحبة، ونعم المعين ..

وكانت أوّل من توضأ، وأوّل من صلى، من ورائه ..

ثم تتابع الخير، في بيت النبوة، الذي هو بيت خديجة!!

علي .. أوّل من آمن؟!!

«ثم كان أوّل ذكرٍ من الناس، آمن برسول الله صلّى الله عليه وسلم ..

«و صلى معه ..

«و صدق بما جاءه من الله تعالى ..

ص: 209

«عليّ بن أبي طالب .. بن عبد المطلب .. بن هاشم .. رضوان الله و سلامه عليه ..

«و هو يومئذ ابنُ عشر سنين ..

«و كان مما أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه كان في حجر رسول الله صلّى الله عليه و سلم، قبل الاسلام ..»

نشأته في حجر الرسول .. صلّى الله عليه و سلم .. و سبب ذلك؟!

قال ابن إسحاق:

كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب، و مما صنع الله له، و اراده به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، و كان أبو طالب ذا عيال كثير. فقال رسول الله صلّى الله عليه و سلم للعباس عمه، و كان من أيسر بني هاشم، يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، و قد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا اليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، و تأخذ أنت رجلاً،

ص: 210

فَنَكِلُهُمَا عَنْهُ. فَقَالَ الْعَبَّاسُ: نَعَمْ.

فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتِيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَا لَهُ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ؛ فَقَالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَأَصْنَعَا مَا شِئْتُمَا.

فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَاخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيًّا، فَاتَّبَعَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرُ عِنْدَ الْعَبَّاسِ حَتَّى أَسْلَمَ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ.

خُرُوجِ عَلِيٍّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شَعَابِ مَكَّةَ يَصِلِيَانِ وَوَقُوفِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى أَمْرِهِمَا!

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى شَعَابِ مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مُسْتَخْفِيًّا مِنْ أَبِيهِ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنْ جَمِيعِ أَعْمَامِهِ وَسَائِرِ قَوْمِهِ، فَيَصِلِيَانِ الصَّلَاةَ فِيهَا، فَإِذَا أَمْسَا رَجَعَا. فَمَكَّنَا كَذَلِكَ مَا شَاءَ

ص: 211

الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً و هما يصليان، فقال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا بن أخي! ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟

قال: أي عم، هذا دين الله و دين ملائكته، و دين رُسُله، و دين أبينا إبراهيم -أو كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

بعثني الله به رسولاً إلى العباد، و أنت اي عم، أحمقٌ مَنْ بذلت له النصيحةَ، و دعوته إلى الهدى، و أحمقٌ مَنْ أجابني إليه و أعانني عليه، او كما قال.

فقال أبو طالب: اي ابن أخي، إني لا أستطيع ان افارق دين آبائي و ما كانوا عليه، و لكن والله لا يُخلّص اليك بشيء تكرهه ما بقيتُ.

و ذكروا أنه قال لعليّ: أي بُنيّ، ما هذا الدين الذي انت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنْتُ بالله و برسول الله، و صدقته بما

جاء به، و صلّيت معه لله و أتبعته.

فزعموا انه قال له: اما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه.

ص: 212

اسلام زيد بن حارثة ثانياً

قال ابن إسحاق:

ثم اسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى ابن امرىء القيس الكلبي، مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وكان أول ذكر أسلم، وصلّى بعد عليّ بن أبي طالب.

نسبه وسبب تبني رسول الله صلّى الله عليه وسلم له

قال ابن هشام.

زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد بن عبد العزى بن امرىء القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ودّ بن عوف ابن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة ابن ثور بن كلب بن وبرة.

ص: 213

وكان حكيم بن حزام بن خُوَيْلِد قدم من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة و صيف فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد، وهي يومئذ عند رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فقال لها: اختاري يا عمّة اي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك.

فاختارت زيدا فأخذته، فرآه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم و تبناه، وذلك قبل ان يوحى اليه.

ثم قدم أبوه عليه وهو عند رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل اقيم عندك.

فلم يزل عند رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم حتى بعثه الله فصدّقه وأسلم، و صلى معه، فلما انزل الله عز وجل: «أدعُوهم لآبائهم»

قال: انا زيد بن حارثة.

ص: 214

أقول .. افتتحت خديجة .. عليها السلام .. قائمة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .. في بيتها الشريف .. بيت رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ..

ثم تتابع أعضاء البيت المبارك .. فآمن عليّ، عليه السلام .. أول صبي يدخل الاسلام ..

ثم آمن زيد .. فكان أول من آمن، بعد عليّ .. من أعضاء البيت الشريف ..

إلا أنّ خديجة .. عليها السلام، قد سبقت الجميع إلى الايمان ..

وذلك فضل الله، يُؤتيه من يشاء!!

ص: 215

أم المؤمنين .. خديجة عليها السلام .. في قلب الأحداث!؟!

ص: 217

خديجة، عليها السلام .. تتألاً أكثر فأكثر ..

كلما اشتد الأذى، ونالت قريش من رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. ما نالت ..

وَعَذَّبَتْ أَتْبَاعَهُ مَا عَذَّبَتْ ..

وهي، عليها السلام ... تعيش تلك الأحداث الجسام، لحظة لحظة، و حادثاً حادثاً، لا تتزحزح ولا تلين، ولكن تزداد شموخاً وتصلباً في دين الله ..

و الجواهر الثمين، يظهر في الشدائد و المحن ..

و من هنا تتفوق خديجة، على سائر نساء النبي، صلى الله عليه وسلم ..

لأنها كانت معه، في أشد فترات الدعوة عُنفاً و تعذيباً و اضطهاداً ..

جاءه الموحى، فكانت أول من آمن به وصدقته ..

وبعد ثلاث سنين من الدعوة إلى الله سرّاً، أمره الله أن يدعو الناس علانية ..

وهنا بدأت المعركة بين الحقّ والباطل ..

وخديجة تشهد هذا كله، و تقف إلى جوار زوجها العظيم، في ثبات عظيم ..

كيف كان شعورها حين سمعت قول زوجها العظيم .. صلّى الله عليه وسلم.

«يا عمّ .. والله لو وضعوا الشمس في يميني .. والقمر في يساري .. على أن أترك هذا الأمر .. حتى يظهره الله ..

أو اهلك فيه ما تركته.»!!

لقد ازدادت شعوراً، أن محمّداً .. صلّى الله عليه وسلم .. ذو عزيمة ليس كمثله عزيمة ..

وأنّ اعظم الشرف لها، أن تكون زوجة، لمن ليس كمثله أحد، كان أو يكون!!

أم كيف كان شعورها، حين علمت أن قريشاً تدامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم .. الذين

أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين يُعذّبونهم، ويفتنونهم عن دينهم!!؟

ها هي تشعر بما يحمل زوجها العظيم، صَلَّى الله عليه وسلم .. من آلام، وهو يرى أصحابه يُعذّبون وهو لا يملك أن يمنعهم!!

لماذا تصنع قريش هذا، وما هي الجريمة التي ارتكبتها هؤلاء!؟

أم كيف كان شعورها، حين أغرت قريش، برسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم .. سفهاءها، فكذبوه، وآذوه، ورموه بالشُّعر والسِّحر والكهانة، والجنون .. ورسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، مُظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به، مهادٍ لهم بما يكرهون من عَيْب دينهم، واعتزال أوثانهم، و فراقه إياهم على كفرهم!؟

وفكرت خديجة: أيمن أن يتحمل أحدٌ كلَّ هذا ولا يلين!؟

ولكنَّ محمداً، العظيم، لا يزداد إلا ثباتاً، وإلا تبليغاً!!

فتزداد خديجة عزيمة من عزمه، صَلَّى الله عليه وسلم، ونوراً من نوره، صَلَّى الله عليه وسلم ..

وما ظنك بامرأة تتشرف بمعاشرة رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم، ليلاً ونهاراً، كيف يكون نورها، وهداها!؟

أم كيف كان شعورها، عليها السلام، حين سمعت أن أشرف

قريش، وثبوا إلى رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟! -لما كان يقول من عَيْب آلهم ودينهم- فيقول رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، نعم .. أنا الذي أقول ذلك ..

فقام رجل منهم فأخذ بمجمع رداءه، فقام أبو بكر، رضي الله عنه، دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه؟!!

إنها تعيش الأحداث لحظة لحظة، و تنفعل بها لحظة بلحظة ..

لأن قطب الأحداث، الذي عليه تدور، هو زوجها، صَلَّى الله عليه وسلم، الذي تحبه أكثر من نفسها ولدها والناس اجمعين!!

ام كيف كان شعورها، عليها السلام .. حين علمت بأشد ما لقي رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، من قريش، أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وأذاه، لا حرّ ولا عبْد، فرجع رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه .. فأنزل الله تعالى عليه:

«يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ»!!

كانت هي .. عليها السلام، التي تدثره، وتهوّن عليه!!

كم تساوي هذه اللحظة، وهي معه، صَلَّى الله عليه وسلم تشعر بشعوره؟!!

إنها عاشت معه، وذاقت اشعاعات النبوة، أعلى نبوة، تشعشع من فؤاده، أعلى فؤاد !!

ماذا أريد أن أقول؟! ..

أريد أن أقول قولاً عظيماً ..

أن النبوة أعلى .. وأكمل .. وأشرف .. مستوى .. يحمله بشر على الاطلاق!!

وهي لذلك اثقل حملاً من الجبال ..

يحملها صلوات الله و سلامه عليهم، باذن الله، وعونه ..

ولولا ذلك ما أطاقوا حملها ..

فكيف بأعظم الرسل، و خاتم النبيين؟! ..

إن ما يحمل من اعباء النبوة، شيء لا تدركه العقول!!

فكيف بزوجه التي تقف إلى جواره، ليلاً ونهاراً، في تلك اللحظات الشاقة من مطلع النبوة؟! ..

كيف كان تركيبها الإيماني، ام كيف كان مستوى النور الذي يسري في فؤادها؟! ..

من الحتم ان يكن على أعلى مستوى .. من السمو .. والحكمة .. والصبر .. والحنان ..

ص: 223

تجد الاشارة إلى ذلك مكنونة في قوله تعالى:

«وَيَا نِسَاءَ النَّبِيِِّ ..

لَسْتُنَّ

«كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ..»!!

فكيف كانت .. عليها السلام .. وهي افضل نسائه .. عليه السلام؟!!!

ص: 224

خديجة عليها السلام .. تشهد هجرة رقية .. مع زوجها عثمان .. إلى الحبشة!!

ص: 225

قال ابن هشام:

«فلما رأى رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. ما يصيب أصحابه من البلاء، و ما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، و من عمه أبي طالب ..

.. و أنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ..

«قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد .. و هي أرض صدق .. حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ..

«فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. إلى أرض الحبشة .. مخافة الفتنة .. و فراراً إلى الله بدينهم ..

«فكانت أول هجرة كانت في الاسلام ..»

ص: 227

هجرة عثمان بن عفان .. و معه امرأته رُقِيَّة .. بنت رسول الله!

«وكان أوّل من خرج من المسلمين .. من بني أمية .. عثمان ابن عفان ..

«معه امرأته .. رُقِيَّة .. بنت رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم ..

«فكان جميع من لحق بأرض الحبشة .. و هاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً و ولدوا بها .. ثلاثة و ثمانين رجلاً ..»

كيف تزوج عثمان .. رُقِيَّة؟!

تقدّم عبد العزّي (أبو لهب) يخطب رُقِيَّة .. و أم كلثوم ..

ص: 228

ابنتي رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. لولديه عُتْبَة وعتيبة ..

وانتقلت رقية .. وأم كلثوم .. إلى بيت الزوجية ..

وما كاد رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. يتلقى رسالة ربه، ويدعو إلى الدين الجديد ..

حتى أخرجت ... رقية وأم كلثوم .. من بيت أبي لهب .. ورُدّتا إلى بيت أبيهما .. طالقين ..

تقدم عثمان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم .. يسأله شرف المصاهرة، فوجه صلّى الله عليه وسلم .. ابنته رقية ..

وكان عثمان بن عفّان .. اول من هاجر إلى الحبشة .. وهاجرت معه زوجته (زُفْيَة) .. على قرب عهدهما بالزواج ..

عودة رُقية .. مع العائدين؟!!

شاع عند المهاجرين إلى الحبشة .. أن قريشاً كَفّت عن إيذاء المسلمين ..

فسار نفر منهم وقد بلغ عددهم ثلاثة و ثلاثين رجلاً، يتقدمهم

(عثمان بن عفان) .. وزوجه السيدة رقية ..

حتى إذا عبروا البحر، ساعين إلى مكة فوجئوا أنّ ما سمعوه كان خيلاً .. وأن التعذيب على أشده .. فدخلوا في جوار مَنْ أجارهم ..

و آبت رقية إلى بيت أبيها .. صلّى الله عليه و سلم ..

هجرة رُقية الى المدينة؟!!

ثم كانت الهجرة إلى المدينة ..

و هاجرت رقية في صحبة زوجها .. عثمان بن عفان ..

ثم كانت غزوة بدر .. وأقام عثمان إلى جانبها يمرضها .. رغم حرصه على شهود المعركة ..

و ماتت رقية ..

و شيعت (يثرب) بنت الرسول .. ذات الهجرتين ..

ص: 230

أقول .. هكذا شهدت خديجة .. عليها السلام .. هجرة ابنتها رقية .. مع زوجها عثمان .. إلى الحبشة ..

إلا أنها لم تشهد هجرتهم الثانية إلى المدينة ..

حيث كانت خديجة .. عليها السلام .. قد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين!!

ص: 231

خديجة .. عليها السلام .. صامدة في المقاطعة و الحصار .. بجوار زوجها العظيم صلّى الله عليه و سلم؟!!

ص: 233

المجرمون

فيهم عباقرة ..

والمؤمنون فيهم عباقرة ..

و فرق ما بين عبقرية المجرمين، و عبقرية المؤمنين ..

أنّ المجرم العبقرىّ .. إذا فكر في فكرة جهنمية .. اندفع إلى تنفيذها .. لأنه لا يخاف حساباً و لا يؤمن بهذه الخرافات (كما يعتقد) التي تقيد المؤمنين!!

لكنّ المؤمن العبقرىّ .. إذا اهتدى إلى فكرة فيها إيقاع أو إيذاء للغير .. تراجع لأنه يخاف الله!!

و لقد كان زبانية قريش أئمة في الإجرام .. و عباقرة في الصّدّ عن دين الله .. و إيذاء المؤمنين ..

و انتهت بهم عبقريتهم .. عبقرية الإجرام .. إلى فكرة جهنمية .. أن يقطعوا بني هاشم مقاطعة تامة .. فلا يكلموهم ..

ص: 235

ولا يبيعوهم ولا يشترون منهم .. ولا يُزوّجُوهم ولا يتزوجون منهم!!

وتعاهد العباقره .. عباقره الإجرام على ذلك ..

فكيف كانت القصة؟!

وكيف كانت خديجة .. عليها السلام .. اثناء مدة المقاطعة و الحصار؟!

وما هي مدة هذا الحصار .. وكيف تم رفعه؟!

اعجبني في تصوير هذا المشهد الخالد .. ما جاء في كتاب «خديجة أم المؤمنين» ..

وانقل اليك بعضاً منه ..

المقاطعة و الحصار!

طالما دبر شياطين قريش، و طالما مكر زعمائها للقضاء على «محمد»، و كانوا يبوءون بالفشل في إثر الفشل، و لكنهم لم ييأسوا و ظلوا يحيكون مكرهم آملين أن يضعوا حداً لانتشار هذا الدين الجديد، و ان يمنعوا إقبال الناس على الدخول فيه، حتى أصبح التفكير

ص: 236

في ذلك شغلهم الشاغل.

وطال بينهم الجدل والأخذ والرد حتى كان آخر العام السادس لنزول الوحي، وهو آخر العام الثالث للجهر بالدعوة، فقادهم شيطان تفكيرهم إلى أمر لم يعهده العرب من قبل، واثقوا على مؤامرة لا ترعى حرمة الجوار، ولا حق ذوي القربى، ولا ما تعودته العرب جميعاً من الإبقاء على صلة الرحم والعصبية للأهل والأقارب، واحترام حرمة النسب والمصاهرة.

فقد قرر أساطين الارستقراطية القرشية في مستهل السنة السابعة من مبعث رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. وهم رؤساء وقادة الأغلبية الساحقة من بطون قريش، قرروا مقاطعة الأقلية الضئيلة ممثلة في بني هاشم وبني المطلب مقاطعة اجتماعية واقتصادية كاملة لا هوادة فيها، وإجبار كل من في مكة ممن يهابون قريشاً ويخشون بأسها على المشاركة في هذه المقاطعة، ولذلك اتفقوا وتعاهدوا فيما بينهم على أن لا يكلموهم، ولا يتعاملوا معهم في بيع أو شراء، ولا يخالطوهم، ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجهم.

وكان مشركو قريش وزعماءؤها يطعمون في أن تخيف هذه المقاطعة الصارمة بني هاشم وبني المطلب، فيسلموا اليهم («محمداً»)، ليقتلوه ويتخلصوا منه ومن دعوته، فإن لم يصلوا إلى هذه النتيجة التي كانوا يطعمون في الوصول إليها، فإنهم كانوا يأملون أن يفرقوا

ص: 237

بين بني هاشم وبني المطلب، فينحاز بنو المطلب إلى بطون قريش الأخرى، ويتركوا بني هاشم وحدهم.

وكانوا يطمعون، أكثر من ذلك، في أن تؤدي قسوة المقاطعة إلى أن ينفذ عن «محمد» بعض أفراد بني هاشم الذين لم يكونوا قد دخلوا بعد في دينه، فيصبح القضاء عليه وعلى من بقي معه امراً ميسوراً.

واراد زعماء الوثنية القرشية ان يدعموا هذا الاتفاق، وان يجعلوا له حرمة وقداسة بحيث لا تجرؤ بطن من بطون قريش على نقضه، فقررُوا أن يثبتوا هذا التآمر ويدونوه في صحيفة، ثم علقوا هذه الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على انفسهم، وبذلك اصبح لها مهابتها واحترامها بين جميع المشركين من بطون قريش، و من القبائل العربية المشركة الأخرى.

وظل النبي .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. رابط الجاش، ثابت العقيدة، مسلماً أمره إلى الله، راضياً بقضائه وقدره، لا يخشى تهديدهم ووعيدهم، مؤمناً بقوله سبحانه:

«وَأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور» ..

وكان يؤمن ان الله الذي ارسله بالحق أن يخلف وعده وسوف ينصر عباده وأن:

ص: 238

«لله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ..

وظلت «ام المؤمنين خديجة» صامدة بجوار رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. و تشد من ازره، و تهون عليه كل ما يدبره له قادة الأرسقراطية القرشفة من عبدة الأوثان، و تخفف عنه، ما استطاعت، وقع هذه المحنة المفاجئة، واضعة نصب عينيها، قوله تعالى مخاطباً نبيه صَلَّى الله عليه وسلم:

«و اتبع ما يوحى اليك و اصبر حتى يحكم الله و هو خير الحاكمين.»

وفوجىء جميع مشركي قريش في بداية هذه المقاطعة الظالمة بانهيار املهم في الافساد بين بني هاشم و بني المطلب، فقد وقف هؤلاء وقفة رجل واحد و ازداد تعاونهم في الذود عن «محمد»، و قرروا ان يضحوا في سبيل ذلك بكل مرتخص و غال، و استهانوا براحتهم، و عرضوا أنفسهم لقسوة الحياة في سبيل هذا الغرض السامي، لا فرق في ذلك بين من آمن منهم بالله و اليوم الآخر و من لم يكن قد آمن بعد.

أما المؤمنون منهم فقد كانوا يرون في ذلك دفاعاً عن دينهم، و عن حريتهم في اختيار العقيدة التي يرتضونها، و ذوداً عن المبادئ الإنسانية السامية التي تدعو اليها هذه العقيدة.

ص: 239

وأما الذين كانوا ما يزالون على جاهليتهم ولم يؤمنوا بعد بالوحدانية، فقد رأوا في المحافظة على «محمد» و مناصرته، محافظة على شرف عشيرتهم وكرامتها، ونجدة لذوي قرابتهم ورحمهم، وقضاء على كبرياء وطغيان العشائر القرشية الأخرى، وعلى ما كانت تقتطفه من ظلم، وعلى ما استباحته من حرمان.

ولم يشذ عن هؤلاء أحد إلا «أبو لهب»، فإنه جبن عن مناصرة أهله وعشيرته، وقاده كرهه «لمحمد»، ورسالته إلى الانحياز إلى البطون القرشية الأخرى، وإلى ان يعينهم على ظلم أهله وذوي قرابته.

وفي سبيل هذه المبادئ السامية، ترك بنو هاشم وبنو المطلب بيوتهم وما فيها من الأثاث ووسائل الترف الأخرى التي كانت متاحة لهم في تلك الحقبة من الزمان، وخرجوا، في مطلع المحرم من العام السابع لنزول الوحي، وهو أول العام الرابع للجهر بالدعوة الإسلامية، إلى شعب أبي طالب شرقي مكة، ليعيشوا بين شعاب الجبال ورمال الصحراء، حيث لا زرع ولا ماء، وحيث يقاسون من قسوة الطبيعة وطقسها المتغير في تلك البيئة الجبلية الصحراوية، ذات الحر اللافت في الصيف، والبرد القارس في الشتاء.

ولم يتخلف عن الخروج لحماية محمد أغنياء بني هاشم وبنو المطلب الذين كانوا يتمتعون بالثراء، وما كان يجلبه لهم من الرفاهية، و
بالجاه

الذي توارثوه عن آبائهم مثل «العباس بن عبد المطلب» الذي كان يملك الأموال الطائلة، ويتجر في العطور التي كان يجلبها من اليمن و من الشام، فإنه لم يتقاعس عن أداء هذا الواجب على الرغم من أنه لم يكن قد دخل في الاسلام حتى ذلك الحين؛ ولكنه هرع مع قومه إلى الشعب ليحيط ابن أخيه «محمدًا» برعايته و حمايته، ويكون مع أخيه الأكبر «أبي طالب» و مع عشيرته الأقربين يداً واحدة على من ظلمهم.

فقد كان «أبو طالب»، و هو سيد قريش و زعيم بني هاشم و بني المطلب، على رأس الداخلين إلى الشعب برغم شيخوخته التي كانت قد جاوزت الثمانين من عمره، و برغم ضعف جسمه و حاجته إلى الراحة و العيشة المسترخية الهادئة بعيداً عن كل مشقة، و عن قسوة العيش في تلك البيئة.

و لكن الشيخ استجمع كل شجاعته، و جمع حوله رجال بني هاشم و بني المطلب و فتیانهم، و حمل معهم نساءهم و أطفالهم و دخل بهم إلى الشعب بين الجبال الوعرة و الصحراء المقفرة، حتى يستطيعوا أن يحموا «محمدًا»، و يذودوا عن شرف عشيرتهم، و محافظة على المكانة السامية و الاحترام الذي كانوا يتمتعون به بين العرب كافة.

و كم كان وفاء جميلاً أن تخرج معهم السيدة خديجة، و تترك بيتها حيث عاشت طوال حياتها عيشة رغدة بفضل ثروتها الطائلة

التي وفرت لها كل وسائل الترف و مكنتها من الاستمتاع بكل ما كان يمكن للمال ان يحصل عليه من الطيبات التي كانت تجلبها تجارتها الواسعة من إنتاج العراق و فارس و الهند عن طريق رحلة الشتاء إلى اليمن، و رحلة الصيف إلى الشام.

خرجت معهم في بداية شيخوختها بعد أن أشرفت على الحادية و الستين من عمرها لتعيش بعيدة عن كل وسائل الراحة التي كانت تتمتع بها في بيتها، و قد استعذبت ذلك دفاعاً عن دينها، و حتى لا تتخلى عن زوجها و حبيبها الذي نعمت بجواره أسعد ايام حياتها، و لم تعبأ بما قد تتعرض له من مشقة، و ما قد يجهد جسمها الضعيف من المتاعب، و ما يقابلها من مرارة الحرمان و قسوة الطبيعة، حباً في الاسهام في نشر دين الوجدانية، و رغبة منها في الوقوف بجوار نبيها و زوجها تحيطه بعطفها، و تظله بحبها و حنانها، و تقاسمه الضراء كما قاسمته من قبل سعادة العيش.

و خرجت مع «خديجة» إلى الشعب ابنتها «أم كلثوم»، و كانت ما تزال في مطلع شبابها زهرة يانعة أوشكت على الثالثة عشرة من عمرها، و كانت معها أختها «فاطمة الزهراء»، التي ما تزال تسبح في سعادة الطفولة البريئة التي تؤهلها لها سنها التي لم تجاوز الحادية عشرة، و كانتا تعيشان من قبل في بحبوحة من العيش المترف، حيث كانتا تنعمان بحياة سعيدة مستقرة، و جدتا فيها كل ما كانت تتيحه لهما في ذلك العصر ثروة والديهما، و لكن شاء القدر أن تنتقلا فجأة

إلى حياة خشنة لا راحة فيها وسط الجبال والوديان و بين رمال الصحراء القاحلة(1).

و شعر أساطين الأرسقراطية المشركة بالنصر لأول مرة منذ بدأ الصراع بينهم و بين رسول الله .. صلّى الله عليه و سلم .. بعد الجهر بالدعوة، فقد عمتهم السعادة التي لم يذوقوا لها طعماً طوال السنوات الثلاث الماضية، و أصبحوا عندما خلت مكة من بني هاشم و بني المطلب يشعرون بأنهم لم يتخلصوا من «محمد» وحده، و لكنهم انتصروا على هذين الرهطين اللذين كانا يتنافسان مع باقي عشائر قريش، و كانا يتغلبان عليهم بكرمهم و وداعتهم و حسن اخلاقهم مما حبب فيهم العرب قاطبة.

و ظنوا، و بعض الظن إثم، أن هذين الرهطين لن يلبثا طويلاً حتى يدعنا و يستسلما صاغرين اليهم يفعلون بهما و «بمحمد» ما يشاءون فيتخلصون منه، و يندون دعوته و يقتلون قتلاً لا قيامة لها بعده و هي في العام الرابع من الجهر بالدعوة.

و بدأت المعيشة في الشعب وسط الجبال تحت قبة السماء بعيدة

ص: 243

1- كانت زينب في كنف زوجها أبي العاص بن الربيع الذي كان يحبها و يحميها، و كانت رقية لا تزال مع زوجها عثمان بن عفان في هجرتهم بالحبيشة.

عن البيوت التي بناها وعاش فيها آبائهم من قبل.

وكان أبو طالب يخشى أن تتسلل في الليل شياطين قريش لاغتتيال ابن أخيه، فقرر اتخاذ الحيطة، و تشديد الحراسة عليه طوال الليل، وكان طوال مدة إقامتهم في الشعب

«يأمر رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم فيأتي فراشه كل ليلة، حتى يراه من أراد به شراً أو غائلة، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. وأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها».

واستمرت المعيشة في الشعب أكثر مما كان يتوقع لها الهاشميون والمطلبيون، و نفذ ما كانوا قد حملوه معهم من زاد، ولما أرادوا أن يعوضوا ما فقدوه بشراء غيره، وجدوا أن أسواق مكة كانت مغلقة أمامهم، و أن أحداً من تجارها كان لا يجزؤ أن يبيعهم شيئاً.

ولما حانت إحدى المواسم التي كانت تعج بها مكة، خرجوا ليشتروا من القوافل الوافدة إلى البيت الحرام من أرجاء الجزيرة العربية ..

ولكن شياطين مشركي قريش كانوا أسبق منهم إلى شراء كل ما كانت تحمله معها تلك القوافل من طعام أو إدام، و إلى التنبيه

على رجال القوافل بعدم التعامل مع المحاصرين بيعاً أو شراءً، وبذلك قطعوا عنهم الأسواق، ولم يستطيعوا أن يشتروا ما يقوتون به أنفسهم وعيالهم.

وكان «أبو لهب» من أنشط الداعين إلى مقاطعتهم، فقد كان يقصد الوافدين على مكة من القبائل العربية، ويغريهم بالوعود البراقة والريح الوفير حيناً، أو يخوفهم بالوعيد حيناً آخر، وكان يضمن لهم أن لا تبور تجارتهم، ويعدهم أن يشتري منهم كل ما يتبقى عندهم من متاع أو بضاعة بأوفر الأثمان.

وهكذا شح الزاد في الشعب، و جاع الأطفال، وكان أهلهم يطبخون لهم أوراق الشجر، وبعض النباتات البرية التي تنبت في الصحراء، أو على سفوح الجبال، وكانوا يأكلونها كارهين لأنهم لا يجدون غيرها ليقتاتوا به.

و مر عام طويل على هذا الحصار، و ساءت حال بني هاشم و بني عبد المطلب، و سعد بذلك شياطين قريش و سفهاؤهم، و ظنوا أن كبرياء المحاصرين سوف تنهار عن قريب، و أنهم و لا شك سوف يذعنون و يسلمون اليهم «محمداً»، يفعلون به ما يرون.

و لكن نقرأ من حكماء قريش، و ذوي المروءة و المكانة فيها ساءهم كل ذلك، و أشفقوا أن تهلك أطفال المحاصرين جوعاً، و أن يذل بطنان من أعز بطون قريش ظلماً، فراحوا يرسلون لهم الطعام سراً،

فثارت نائرة سفهاء قريش، وأحكموا الحصار وبثوا العيون والأرصاد حوله.

وتأكد لهم أن «هشام بن عمرو العامري»، يصل من في الشعب فيرسل لهم الطعام بين الحين والحين.

و«عمرو» هذا هو أخو «نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه»، وكان من ذوي الفضل والمروءة، محباً للهاشميين، وواصلاً لهم.

و تربص شياطين قريش، فعثروا على جمال ثلاثة أرسلها «عمرو» إلى الشعب في جنح الليل محملة بالطعام، فلما أصبح الصباح ذهبوا إليه ولا موه على ذلك، فوعدهم أن يوقف إرسال معونته إلى الشعب.

ولكنه سرعان ما ندم على هذا الوعد، وعز عليه أن لا يصل أهله إبان محنتهم، وان يتركهم يتضورون جوعاً، فأرسل إلى الشعب جملين آخرين يحملان الزاد.

وقامت قيامة سفهاء قريش، واشتد غضبهم، وراحوا يؤنبونه لخروجه على إجماعهم، وأغلظوا له في القول، ثم هددوه بالقتل إن هو عاد إلى مثل ذلك.

وكان «أبو سفيان بن حرب»، زعيم بني أمية وسيدها، حاضراً؛ فاستفزه تأنيبهم «لهشام العامري»، وأغضبه تهديدهم له، وغلبت عليه شهامته، فوجه اليهم أشد الملامة، وقال إن «هشام»، لم

يرتكب إثماً، وإنما دفعته الشهامة و المروءة إلى أن يصل أهله، وأن يعين ذوي قرابته عند الشدة، و كان الأجدد بقريش أن تفعل مثل ما فعل.

و ذعر سفهاء قريش المناصرة «أبي سفيان»، لأحد الخارجين عما جاء في صحيفة المقاطعة؛ و لكنهم خشوا أن يجادلوه، فقد يدفعه ذلك إلى الانضمام هو و قومه إلى «هشام» و أمثاله ممن يعينون المحاصرين، فكظموا غيظهم و لم يجرؤ أحدهم على مخالفة «أبي سفيان».

و داوم «هشام العامري» على كرمه و مروءته، فكان يقود الناقة بنفسه في جوف الليل البهيم محملة بالطعام و يأتي بها إلى مدخل من مداخل الشعب، ثم يوجهها ناحية المحاصرين، و يضربها على جنبها فتسرع داخلة إلى الشعب، حيث يتلقفها المحاصرون.

و مر عام آخر طويل على هذا الحصار الذي لم تسمع العرب بمثله من قبل، و كان الطعام الذي يصلهم خفية مما يرسله ذوو المروءة و الفضل لا- يكفي لسد حاجة المحاصرين، و هزل الكبار و الصغار؛ و لكنهم جميعاً صبروا صبر الكرام على شدة البلاء، و هول جوع الأطفال الذين طالما باتوا طوال ليلهم يبكون و يتألمون و هم يتضورون جوعاً،

بكاء كان يسمع من خارج الشعب.

و كان أهل بيت النبي جميعاً يتحملون مرارة الجوع و آلامه، كما كان يتحملها أهلهم المحاصرين.

ولكن «خديجة»، لم تقف مكتوفة اليدين أمام هذه النكبة المفاجئة بل كانت تبذل كل ما تستطيع من جهد و مال لتتقدهم من الهلاك، فكانت ترسل إلى أهلها يشترون لها الطعام ويرسلونه سراً إلى الشعب، وكان أهلها وعشيرتها نبلاء و أوفياء لها، فلطالما كانت قبل هذه المحنة كريمة معهم، تصلهم ببرها، و تمد كل محتاج منهم بمعونتها، فبادلوها عند شدتها و فاء بوفاء، و حباً بحب، و لا يعلم إلا الله وحده كم أنفقت من مالها في سبيل تزويد المحاصرين بكل ما استطاعت أن تجلبه لهم، فكانت لهم نعمة و عوناً قيضها الله سبحانه لإغاثتهم.

و كان ابن أخيها «حكيم بن حزام بن خويلد»، يقود بنفسه الجمال محملة بالطعام إلى الشعب.

و لقيه ذات مرة «ابو جهل»، و معه غلام يحمل قمحاً لعمته خديجة بنت خويلد، فأمسك بتلابيبه، و اقسام ان لا يبرح مكانه حتى يفضحه في مكة ..

فقد كان في نظره يرتكب جريمة شنعاء، هي الخروج على ما تعاقبت عليه قريش، و على ما كتبوه في الصحيفة المعلقة في جوف الكعبة.

و جاء «ابو البخترى بن هاشم بن أسد»، فنهر «ابا جهل» و قال له: طعام كان لعمته عنده بعثت اليه فيه، أفتمنعه ان يأتيها بطعامها؟ خل عن الرجل.

وأنبي «أبو جهل»، فتماسك الرجلان بالأيدي، وتعاركا عراكاً طويلاً، فضرب أبو البختری ابا جهل على رأسه فشججه، ثم القاء على الارض و جعل یركله بقدمیه ..

ولكنها شعرا أن «حمزة بن عبد المطلب»، جاء ووقف بالقرب منهما یرى و یسمع عراکهما.

وكانت قریش تكره ان تصل اخبار مثل هذا العراک والشجار إلى رسول الله .. صلّى الله علیه و سلم .. واصحابه، فیشمتوا فیهم، ولذلك كفوا عن هذا الصراع، ودخل القمح إلى الشعب.

وسارت الأيام بطیئة ثقيلة، ومرت الليالي على المحاصرين طویلة و مضنية، حتى أوشك العام الثالث على الحصار ان ینتهي، وكان كل ما یصل الیهم من الطعام خفية لا یغني ولا یسمن من جوع، حتى هزل الصغار، وضعف الكبار.

ولكنهم كانوا کراماً على أنفسهم، محافظین على عزتهم، یفضلون هذا الموت البطيء على أن یهنوا أو یدلوا أمام جبابرة قومهم.

وأسرف سفهاء قریش فی بغیهم، واستمروا فی طغیانهم، و بذلوا الجهود فی محاولة إحكام الحصار على الشعب، وكانت محنة أشفق منها کرام قریش و عقلاؤها.

فقد أدركوا أن عناد هؤلاء السفهاء و طغیانهم سوف یؤدي إلى

حرب تجويع بطيء حتى الموت لفريق من أكرم قريش حسباً، وأعزهم نسباً، وأحسنهم خلقاً، وان فناء هذا الفريق سوف يكون على مدى الدهر عاراً و سبة في تاريخ قريش.

أدرك ذلك فريق من كرام قريش، و خطر على بال كل واحد منهم ذلك إذا خلا إلى نفسه، فجعل يلومها ويأسف على ما حل بالمحاصرين.

وكان أسبق من حملتهم المروءة على هذا التفكير المتزن «هشام بن عمرو العامري»، وكان كما رأينا يصل المحاصرين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد دفعته شجاعته و مروءته إلى أن يسعى حتى جمع حوله أربعة آخرين اختارهم من ذوي العقل و المكانة بين عشائر قريش، و ممن تربطهم بالمحاصرين صلة القرابة و الرحم، فتشاوروا و اتفقوا فيما بينهم على أن يمزقوا الصحيفة المعلقة في جوف الكعبة.

و من الخير أن نذكر، بشيء من التفصيل، بعض ما ورد إلينا من خبر هذا السعي النبيل مما كان أحد الأسباب التي أدت إلى فض الحصار:

بدأ «هشام العامري»، بالذهاب إلى «زهير بن أبي أمية المخزومي»، و هو ابن «عاتكة»، عمة رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. و أخذ يعيره لأنه أسلم أخواله «لأبي جهل»، و عصبته و تركهم يتضورون جوعاً، بينما هو يستمتع بأطيب الطعام، و يلبس أحسن الثياب.

ص: 250

وعيره كذلك أنه خضع في ذلك «لأبي جهل»، واطاع أمره، وان «أبا جهل»، لم يكن ليرضى لأخواله مثل هذا المصير لو أنه دعي إلى مثل ذلك.

ويجدر بنا أن نثبت بعض هذا الحوار كما ورد إلينا ..

قال هشام: يا زهير أقدر رضيت ان تأكل الطعام، و تلبس الثياب، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم؟. أما إني احلف لو كانوا اخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه ابداً.

قال زهير: ويحك يا هشام! فماذا اصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حتى أنقضها.

هشام: قد وجدت رجلاً.

زهير: فمن هو؟

هشام: أنا.

زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب هشام إلى «المطعم بن عدي بن عبد مناف» فقال له: يا مطعم أقدر رضيت ان يهلك بطنان من بني عبد مناف وانت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه! اما والله لئن مكنتموهم من هذه لتجدنهم

ص: 251

اليها منكم سراعاً!

قال المطعم: فماذا اصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

هشام: قد وجدت ثانياً.

المطعم: من هو؟

هشام: أنا.

المطعم: ابغنا ثالثاً.

هشام: قد فعلت.

المطعم: من هو؟

هشام: زهير بن أبي أمية.

المطعم: أبغنا رابعاً.

فذهب هشام إلى البخترى بن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم ابن عدي.

فقال البخترى: وهل من احد يعين على هذا؟

قال هشام: نعم .. زهير بن أبي أمية، و المطعم بن عدي، و انا معك.

فقال المطعم: ابغنا خامساً.

ص: 252

و ذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه و ذكر له قرابتهم و حقهم.

فقال له: و هل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

فقال: نعم.

ثم سمى له القوم.

اتفق الخمسة على ان يتقابلوا في مكان بأعلى مكة يقال له خطم الحجون، و هناك اجمعوا امرهم، و تعاهدوا على القيام في امر الصحيفة حتى ينقضوها، و ان يبدأ زهير الكلام، و يندس الآخرون وسط زعماء قريش في نواديهم المنتشرة حول الكعبة، ثم يؤيدوه من مختلف النواحي.

و كان النبيّ .. صلّى الله عليه و سلم . طوال هذه السنوات الثلاث المضيئة، راضياً بقضاء الله و قدره، صابراً على هذه المحنة القاسية، يجوع كما يجوع أهله و اقرباؤه، و يقتات مثلهم على أوراق الشجر و جذور النباتات البرية، لا يخشى إلا الله، و لا يخاف إلا من غضبه، دائماً على دعوة قومه ليلاً و نهاراً، سراً و جهاراً، صابراً على أذاهم و تكذيبهم إياه و استهزئهم به ..

و كان الوحي متتابعاً في نزوله بالآيات الكريمة التي تذكر

ص: 253

أوامر الله ونواهيه، ووعده ووعيده، وتحض على مكارم الأخلاق.

وكما كان - صَلَّى الله عليه وسلم - دائم التضرع إلى الله سبحانه أن يجعل للمحاصرين مما هم فيه مخرجاً، وأن يهبهم بعد العسر يسراً.

واستجاب الله سبحانه لدعائه، فأطلعه أنه سلط حشرة الأرضة على الصحيفة الظالمة، فلحست كل ما كان مكتوباً فيها من جور وظلم، و لم يبق عليها إلا ما كان مكتوباً في صدرها وهو:

«باسمك اللهم» ..

وبادر النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - فذكر ذلك لعمه «أبي طالب»، فدهش وقال أحق ما تخبرني يا ابن أخي؟

قال: نعم والله ..

فجمع «أبو طالب»، على الفور إخوته وذكر لهم ذلك.

فقالوا له: ما ظنك به؟

فقال: والله ما كذبتني قط ..

قالوا: فما ترى؟

قال: أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدون من الثياب، ثم تخرجون

ص: 254

إلى قريش، فنذكر ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر.

و خرج «ابو طالب» وإخوته إلى المسجد الحرام وقد استولى عليهم الخوف، و جلسوا تحت الحجر الأسود، و كان لا يجلس تحته إلا زعماء قريش و اهل الرأي و المكانة فيها.

و دهش كل من كان في مجالس قريش و نواديها، و ظن اكثرهم ان الجوع و متاعب العيش داخل الشعب قد أنهكتهم، و قضت على كبريائهم، و اعتقدوا أنهم سوف يعلنون استسلامهم، و أنهم سوف يسلمون لقريش
«محمداً» دون قيد أو شرط، فعمهم البشر.

و تكلم أبو طالب فقال: قد جرت أمور بيننا و بينكم لم نذكرها لكم، فاثتوا بصحيفتكم التي فيها موثيقكم، فلعله أن يكون بيننا و بينكم صلح ..

و إنما قال لهم «أبو طالب»، ذلك خشية ان ينظروا في الصحيفة قبل ان ياتوا بها.

فلما أتوا بها و وضعوها بينهم قالوا لأبي طالب: قد آن لكم أن ترجعوا عما اخذتم علينا و على انفسكم.

فقال ابو طالب: إنما اتيتكم في أمر هو نصف بيننا و بينكم، إن ابن أخي اخبرني، و لم يكذبني، أن هذه الصحيفة التي بين ايديكم قد بعث الله عليها دابة، فلم تدع فيها إسماً هو لله إلا أثبتته فيها، و نفت منه

الظلم و القطيعة و البهتان، فإن كان الحديث كما يقول أفريقوا فلا والله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا اليكم صاحبنا فقتلتكم أو استحييتكم.

وبدا الارتياح و الرضا على وجوه المشركين، و ظنوا ان «ابا طالب» إنما يعرض عليهم ذلك ليجد وسيلة يحفظ بها على بني هاشم و بني المطلب ماء و جوههم ..

فالوثيقة التي بين أيديهم كانت سليمة و مطوية، و مختوماً عليها بالخواتيم الثلاثة التي ختمت بها عند تعليقها في جوف الكعبة، و لذلك رأوا ان يجاملوه حتى يتم لهم النصر و يسلم لهم «محمداً».

فأظهروا الرضا قائلين: لقد انصفتنا و رضينا بما تقول.

و تعاقدوا معه على ذلك و هم جلوس تحت الحجر الأسود.

و فضوا الأختام، و فتحو الصحيفة ثم نظروا فيها، فإذا هي كما ذكر النبي الصادق الأمين خالية من كل ما سطر فيها من بغي و مقاطعة و قطيعة رحم، و ليس فيها إلا: باسمك اللهم.

فبهتوا جميعاً و وقفوا حيارى، لا يدرون ما يصنعون، و نكسوا على رؤوسهم.

و لكن سرعان ما عادت شياطينهم إلى إظهار السخط و الندم على تعاقدهم معه، و عادوا بقيادة «أبي جهل»، إلى غطرتهم و بغيهم

وقالوا: هذا سحر ابن اخيك!

فقال أبو طالب: علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر؟

ثم دخل هو وأصحابه بين استار الكعبة وقال بصوته الجهوري:

اللهم انصرنا ممن ظلمنا، وقطع ارحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا.

ثم انصرفوا عاندين إلى الشعب.

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء شيخ بني هاشم.

إذ رأى الخمسة الذين تعاهدوا على نقض الصحيفة، غدر سفهاء قريش لعهدهم، ونكثهم لتعاقدهم مع «أبي طالب».

فوقف «زهير بن أمية»، تحت الحجر الأسود وقال: يا اهل مكة، أأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكتي، لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وثار ابو جهل وانتفض قائلاً: كذبت والله لا تشق.

وتصدى له «زمعة بن الأسود»، وكان في ناحية أخرى من المسجد، فصاح في «أبي جهل» قائلاً: انت والله اكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

وصاح البخري، وكان في ناحية ثانية من المسجد، وقال بأعلى

صوته: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقرّ به.

وتقدم المطعم بن عدي من الناحية الثالثة من المسجد، وصاح في أبي جهل، وقال مخاطباً زملاءه: صدقتمنا وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله منها، ومما كتب فيها.

وهب هشام بن عمرو واقفاً وصاح غاضباً وهو يخاطب زملاءه بقوله: صدقتم وكذب من قال غير ذلك، والله لا نرضى بهذه الصحيفة الظالمة، لقد كانت شؤماً منذ ساعة كتابتها، وشلت يد كاتبها، والله لن نرضى حتى نشقها ويعود اهلنا من بني هاشم وبني المطلب إلى بيوتهم.

واسقط في يد أبي جهل، وتملكته الحيرة، فلم يعد يملك زمام نفسه، واعتقد ان أكثر من بطن من بطون قريش قد اتفقوا على نقض الصحيفة، وانه هو وقومه لا قبل لهم بهم، ولن يستطيعوا الوقوف في سبيلهم.

فقال، وقد استولت عليه حسرة اليأس، وذل الهزيمة: هذا أمر قصي بليل، تُشور فيه بغير هذا المكان.

وتقدم المطعم بن عدي بخطى ثابتة، فمزق الصحيفة شر ممزق، وذهب الخمسة الذين تعاونوا على نقض الصحيفة وتمزيقها في نفر من اهلهم واعوانهم لابسين السلاح إلى شعب «ابي طالب»، ثم عادوا

ص: 258

مع بني هاشم و بني المطلب إلى مكة.

و دخل الذين كانوا بالأمس مبعدين و محصورين في الشعب إلى بيوتهم رافعي رؤوسهم.

لم يهنوا و لم يذلوا و لكنهم صبروا و صابروا طوال اعوام ثلاثة، حتى جعل الله لهم من أمرهم يسراً، و مما كانوا فيه من الضيق و الحس فرجاً و مخرجاً.

و كان رجوعهم في مستهل العام العاشر لمبعث رسول الله -صلى الله عليه و سلم-.

و علم «ابو جهل»، و أضرابه من سفهاء قريش أن بني هاشم و بني المطلب اصبحوا في منعة، يعتزون بأعوان اشداء لن يسلموهم لأعدائهم، فأسقط في أيدي المشركين بعد ان تجرعوا مرارة الخزي و الفشل ..»

ص: 259

أقول .. بطولة أخرى من بطولات خديجة .. عليها السلام ..

سيدة أشرفت على الحادية والستين من عمرها .. تتحمل كل ذلك العذاب في سبيل الله .. و تشارك بأموالها في تخفيف وطأة الحصار على مَنْ بالشَّعب ..

إنها سيِّدة عظيمة .. جلييلة .. جديرة بالتوقير و التعظيم!!

إليك بعضاً مما قالوا في تصوير ما كان يلقى اهل الشعب من الجوع:

«يحكى أن المؤمنين جهدوا من ضيق الحصار، حتى إنهم كانوا ياكلون الخبط، و ورق السمرة، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة ..

«و كان فيهم سعد بن أبي وقاص، روى أنه قال: لقد جعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب، فوضعتة في فمي و بلعته، و ما أدري ما هو إلى الآن.

«و كانوا إذا قدمت العير مكة، و أتى أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، يقوم أبو لهب، عدو الله فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي و وفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم.

«فيزدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى

أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيريحهم فيما اشتروا من الطعام و اللباس، حتى جهد المسلمون، و من معهم جوعاً و عرياً».

هذا قليل من كثير .. عاناه المحاصرون في الشعب ..

على امتداد ثلاث سنين ..

و كانت خديجة .. في قلب المعركة .. معركة التجويع .. و الإماتة ..

وزادها شرفاً .. أنها كانت قد تجاوزت الستين!!

ص: 261

هل شهدت .. خديجة عليها السلام .. معجزة الاسراء و المعراج!؟

ص: 263

قال سبحانه:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.»

[الإسراء : 1]

هذا عن الاسراء .. فماذا عن المعراج!؟

قال سبحانه:

«مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ..

«لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»

[النجم 17 و 18]

ص: 265

و السؤال الذي نظرحه هنا:

هل شهدت السيدة خديجة .. عليها السلام .. حادث .. أو معجزة الإسراء والمعراج؟

قال الامام النووي .. شرحاً على حديث الإسراء .. في صحيح مسلم:

«إن الإسراء اقل ما قيل فيه أنه كان بعد مبعثه صَلَّى الله عليه و سلم بخمسة عشر شهراً ..

وقال الحربي:

«كان ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ..

وقال الزهري:

«كان ذلك يعد مبعثه صَلَّى الله عليه و سلم بخمس سنين ..

وقال ابن إسحاق:

«أسرى به صَلَّى الله عليه و سلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل ..

«و اشبه هذه الاقوال .. قول الزهري .. وابن إسحاق ..

ص: 266

«إذ لم يختلفوا أن خديجة .. رضي الله عنها .. صلّت معه .. صلّى الله عليه وسلم .. بعد فرض الصلاة عليه ..

«ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة بمدة .. قيل بثلاث سنين .. وقيل بخمس ..

«و منها أن العلماء مجمعون على أن فرض الصلاة كان ليلة الاسراء ..»

أقول .. إذا أخذنا بالرأي القائل بأن الإسراء كان في السنة الخامسة .. أو بعد أن فشا الإسلام بمكة و القبائل ..

انتهينا إلى رأي يقول: بأن خديجة .. عليها السلام .. كانت حاضرة .. وعلى قيد الحياة .. عند وقوع معجزة الاسراء

و المعراج ..

و أنها شهدت الأيام التي كانت فيها المعجزة ..

و أنها صلّت مع رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. بعد فرض الصلاة عليه .. في ليلة المعراج!!

فكيف كان الاسراء .. و كيف كان المعراج .. و ماذا جرى فيهما؟!!

ص: 267

قال ابن هشام:

ثم أسرى برسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. وهو بيت المقدس من إيلياء (مدينة بيت المقدس) .. وقد فشا الاسلام بمكة في قريش .. وفي القبائل كلها ..

رواية عبد الله بن مسعود عن مسراه صَلَّى الله عليه وسلم

فكان عبدُ الله بن مسعود -فيما بلغني عنه- يقول:

أتي رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم بالبُرّاق -وهي الدّابةُ التي كانت تُحْمَل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرَها في منتهى طرفها - فحُمل عليها، ثم خرج به صاحبُه، يرى الآيات فيما بين السماء والارض،

حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى

في نفر من الأنبياء قد جمعوا له، فصلّى بهم.

ثم أتى بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: فسمعتُ قائلاً يقول حينُ عرضت عليّ: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمتّه، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمتّه، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمتّه.

قال: فأخذت إناء اللبن، فشربت منه، فقال لي جبريلُ عليه السلام: هُديت وهُديت أمتك يا محمد.

حديث الحسن عن مسراه صلّى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق:

وحدثت عن الحسن أنه قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: بينا أنا نائم في الحجر، إذ جاءني جبريلُ، فهَمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي.

ص: 269

فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أر شيئاً، فعدت إلى مَضْجعي.

فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه، فجلستُ، فأخذ بعَضدي، فقامت معه، فخرج (بي) إلى بابِ المسجد، فإذا دابةٌ أبيض، بين البغل والحمار، في فَخْذيه جَنَاحانِ يَحْفِزُ(1) بهما رجليه، يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا افوته.

حديث قتادة عن مسراه صَلَّى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق:

و حَدَّثتْ عن قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ:

حُدِّثتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ لِأَرْكَبَهُ

ص: 270

1- يحفز: يدفع.

شَمْس (1)، فوضع جبريلُ يدهُ على معرفته (2)، ثم قال: أَلَا تَسْتَحِي يا براقُ مما تَصْنَعُ، فوالله ما ركبتُ عبدُ لله قبلَ محمدٍ أكرمُ عليه منه. قال: فاستحيا حتى ارفضَّ عرقاً، ثم قرَّ حتى ركبته.

عود الى حديث الحسن، عن مسراه صَلَّى الله عليه وسلم و سبب تسمية ابي بكر: الصديق

قال الحسنُ في حديثه:

فمضى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، و مضى جبريلُ عليه السلام معه، حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيمَ و موسى و عيسى في نفرٍ من الأنبياء، فأَمَّهم رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم فصلى بهم، ثم أُتِيَ بإناءين، في أحدهما خمر، وفي الآخر لبن.

ص: 271

1- يقال: شمس الفرس: إذا لم يمكن أحداً من ظهره ولا من الأسراج والالجام، ولا يكاد يستقر.

2- المعرفة: اللحم الذي ينبت عليه شعر العرف.

قال: فأخذ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إناءَ اللبنِ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَرَتَرَكَ إناءَ الخمرِ.

قال: فقال له جبريلُ: هُدَيْتَ لِلْفِطْرَةِ، وَهُدَيْتَ أُمَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَحُرِّمْتَ عَلَيْكُمْ الخمرِ.

ثم انصرف رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى قَرِيشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الخَبَرَ.

فقال أكثرُ الناسِ: هذا واللهُ الإِمرُ (1) البَيِّنُ، واللهُ إِنْ العِيرُ تُتَطَرَدُ، شَهْرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ مُدْبِرَةً، وَشَهْرًا مُقْبِلَةً، أَفِيذْهَبُ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ!

قال: فارتدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ، وَذَهَبَ النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِكَ، يَزْعَمُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَيْتَ المَقْدَسِ وَصَلَّى فِيهِ وَرَجِعَ إِلَى مَكَّةَ.

قال: فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يُعْجِبْكُمْ مِنْ ذَلِكَ! فوالله إنه ليُخْبِرُنِي أَنَّ الخَبَرَ لِيَأْتِيهِ (مِنْ اللّهِ) مِنَ السَّمَاءِ إِلَى

ص: 272

1- الإِمرُ: العَجِيبُ المُنْكَرُ.

الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأصدقه، فهذا أبعدُ مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟

قال: نعم؛ قال: يا نبي الله، فصّفه لي، فأني قد جئته.

قال الحسن:

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: فرفع لي حتى نظرتُ إليه -فجعل رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر. ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسولُ الله، كلما وصف له منه شيئاً، قال: صدقت، أشهد أنك رسولُ الله، حتى (إذا) انتهى، قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق.

فيومئذ سمّاه الصديق.

قال الحسن:

وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن اسلامه لذلك:

«و ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ، وَ نَحْوَهُمْ، فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طَغْيَانًا كَبِيرًا.»

ص: 273

فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ما دخل فيه من حديث قتادة.

حديث أم هانئ، عن مسراه

قال محمد بن إسحاق:

و كان فيما بلغني عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها، و اسمها هند، في مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنها كانت تقول:

ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا و هو في بيتي، نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلّى العشاء الآخرة، ثم نام و نَمْنَا، فلما كان قُبيل الفجر أهبّنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلى الصبح و صلينا معه، قال: يا أم هانئ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيتَ بهذا الوادي، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين.

ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف رداءه، فتكشّف عن بطنه

ص: 274

كَأَنَّهُ قُبُطِيَّةٌ (1) مَطْوِيَةٌ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَا تَحَدِّثْ بِهَذَا النَّاسِ فَيَكْذِبُوكَ وَيُؤْذُونَكَ.

قال: والله لأحدثهموه. قالت: فقلت لجارية لي حَبَشِيَّة: ويحك اتبعي رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تَسْمَعِي ما يَقُولُ للناسِ، و ما يقولون له.

فلما خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس أخبرهم، فَعَجَبُوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمدا؟ فإننا لم نسمع بمثل هذا قَطُّ.

قال: آية ذلك أَنِّي مَرَرْتُ بِعَيْرِ بَنِي فَلانِ بُوادي كَذَا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُمْ حَسَّ الدَّابَّةِ، فَنَدَّ لَهُمْ بِعَيْرٍ، فَدَلَّتُهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَا مَوْجَّهٌ إِلَى الشَّامِ. ثُمَّ أَقْبَلْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِضَجْنانِ (2) مَرَرْتُ بِعَيْرِ بَنِي فَلانِ، فَوَجَدْتُ الْقَوْمَ نِياماً، وَلَهُمْ إِياءٌ فِيهِ ماءٌ قَدْ غَطَّوا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ ما فِيهِ، ثُمَّ غَطَيْتُ عَلَيْهِ كما كان؛

ص: 275

1- القبطية (بالضم و تكسر): ثياب من كنان تنسج بمصر منسوبة إلى القبط على غير قياس.

2- ضجنان (بالتحريك): جبل بناحية تهامة.

و آية ذلك أن عيرهم الآن يَصوب (1) من البيضاء (2)، ثنية التنعيم (3)، يقدمها جمل أورك (4)، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى بَرَقاء (5).

قالت: فابتدر القومُ الثنية فلم يلقهم أولُ من (6) الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضّعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه، وانهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماءً.

وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، وندد لنا بعير، فسد معنا صوت رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه.

ص: 276

1- يصبوب: ينزل من عل.

2- البيضاء: عقبة قرب مكة تهبطك إلى فح، وأنت مقبل من المدينة تريد مكة، أسفل مكة من قبل ذي طوي.

3- التنعيم: موضع بمكة في الجبل.

4- الأورك: الذي لونه بين الغبرة والسواد.

5- البرقاء: التي فيها ألوان مختلفة.

6- يريد أن الجمل كان أول ما لقيهم.

وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه أنه قال:

سمعت رسولَ الله صلَّى الله عليه و سلم يقول: لما فرغتُ مما كان في بيت المقدس، أتيت بالمعراج، و لم أر شيئاً فطُ أحسنَ منه، و هو الذي يَمَدُّ اليه ميّتكم عَيْنيه إذا حُضر، فأصعدني صاحبي فيه، حتى انتهى بي إلى بابٍ من أبواب السماء، يقال له: باب الحَفَظَة، عليه مَلَكٌ من الملائكة، يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشرَ الفَ مَلِكٍ،

تحت بدي كل مَلِكٍ منهم اثنا عشرَ الفَ مَلِكٍ.

قال: يقول رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم حين حَدَّثَ بهذا الحديث: وما يعلم جنود ربك إلا هو - فلما دُخِلَ بي، قال: مَنْ هذا يا جبريل؟ قال: (هذا) محمد. قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم. قال: فدعا لي بخير: وقاله.

عدم ضحك خازن النار للرسول صَلَّى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق:

وحدثني بعضُ أهل العلمِ عن حدثه عن رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. أنه قال:

تَلَقَّتْني الملائكةُ حين دخلتُ السماء الدنيا، فلم يلقني ملكٌ إلا ضاحكاً مستبشراً، يقول خيراً ويدعو به، حتى لَقِيتُني مَلَكٌ من الملائكة، فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل ما دَعَوْا به، إلا أنه لم يضحك، ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره.

فقلت لجبريل: يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكةُ ولم يضحك (إليّ)، ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيتُ منهم؟

ص: 278

قال: فقال لي جبريلُ: أما إنه لو ضحك إلى أحدٍ كان قبلك، أو كان ضاحكاً إلى أحدٍ بعدك، لَضَحِكَ اليك، و لكنه لا يضحك هذا مالكُ خازن النار.

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله: فقلت لجبريل، و هو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم «مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ»: ألا تأمره ان يُريني النار؟ فقال: بلى، يا مالك، أَر محمداً النَّارَ.

قال: فكشف عنها غِطاءها، ففارت و ارتفعت، حتى ظننت لتأخذنَّ ما أرى.

قال: فقلت لجبريل: يا جبريل، مُرهُ فَلْيُرِدَّهَا إلى مكانها.

قال: فأمره. فقال لها أخبي، فرجعتُ إلى مكانها الذي خرجت منه. فَمَا شَبَّهْتُ رُجوعها إلا وقوع الظلِّ. حتى إذا دخلت من حيثُ خَرَجْتَ رَدَّ عليها غِطاءها.

عود الى حديث الخدري عن المعراج

قال أبو سعيد الخدري في حديثه:

إن رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم قال: لما دخلتُ السماء الدنيا، رأيت بها

رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويُسرّ به، ويقول: روح طيّبة خرجت من جسد طيب؛ ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أفّ. ويُعَبَس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم، تُعرض عليه ارواح ذريته، فإذا مرّت به روح المؤمن منهم سرّ بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب. وإذا مرّت به روح الكافر منهم أفّف منها وكرهها، وساء ذلك وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

صفة اكلة اموال اليتامى

قال: ثم رأيت رجلاً لهم مشافر كمشافر الإبل، في ايديهم قطع من نار كالأنهار(1)، يقذفونها في افواههم، فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة اموال

ص: 280

1- الافهار: جمع فهر، وهو حجر على مقدار ملء الكف.

اليتامى ظُلماً.

صفة اكلة الربا

قال: ثم رأيت رجلاً لهم بطنون لم أرَ مثلها قطُ بسبيل آل فرعون(1)، يمرّون عليهم كالإبل المَهَيومة(2) حين يُعرضون على النار، يطئونهم لا يقدرّون على ان يتحوّلوا من مكانهم ذلك.

قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اكلة الربا.

صفة الزناة

قال: ثم رأيتُ رجلاً بين أيديهم لحم ثمين طيّب، إلى جنبه لحم غثّ منتن، ياكلون من الغثّ المنتن، ويتركون السمين الطيب.

ص: 281

1- خص آل فرعون، لأنهم أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

2- المهَيومة: العطاش

قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهن.

صفة النساء اللاتي يدخلن على الأزواج ما ليس منهم

قال: ثم رأيت نساء معلقات بثديهن. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي ادخلن على الرجال من ليس من أولادهم.

قال ابن إسحاق:

وحدثني جعفر بن عمرو، عن القاسم بن محمد أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال:

اشتدّ غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم،

ص: 282

فأكل حَرَابِهِمْ (1)، وأطلع على عوراتهم.

عود الى حديث الخدري عن المعراج

ثم رجع إلى حديث أبي سعيد الخدري، قال:

ثم اصعدني إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا. قال: ثم اصعدني إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر.

قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب.

قال: ثم اصعدني إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل فسألته: من هو؟ قال: هذا إدريس.

قال: يقولُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم: ورفعناه مكاناً عليّاً.

قال: ثم أصعدني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس

ص: 283

1- الحرائب: جمع حربية و المال.

و اللحية، عظيم العُثُنون(1)، لم أرَ كَهَلاً أَجْمَلَ منه.

قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا المُحِبُّ في قومه هارون بن عمران.

قال: ثم اصعدني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم(2) طويلٌ اقنى(3)، كأنه من رجال شنوءة.

فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى ابن عمران.

ثم أصعدني إلى السماء السابعة، فإذا فيها كَهْلٌ جالس على كُرْسِيٍّ إلى باب البيت المَعْمور، يدخله كل يوم سَبْعون ألف ملك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. لم أرَ رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه.

قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

ص: 284

1- العثنون: اللحية.

2- الآدم: الأسود.

3- الأقي: ما ارتفع أعلى أنفه و احدودب وسطه و سبغ طرفه.

قال: ثم دخل بي الجنة، فرأيتُ فيها جارية لعشاء(1)، فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبتني حين رأيتهَا. فقالت: لزيد

أبن حارثة.

فبشر بها رسول الله صلَّى الله عليه وسلم زيد بن حارثة.

قال ابن إسحاق:

و من حديث (عبدالله) بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلَّى الله عليه وسلم فيما بلغني:

أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد؛ فيقولون: أو قد بُعث(2)؟ فيقول: نعم، فيقولون: حيَّاه الله من أخ وصاحب! حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربه، ففرض عليه خمسين صلاة في كلِّ يوم.

ص: 285

1- اللعس في الشفاه: حمرة تضرب إلى السواد.

2- وفي سائر الأصول: «أو قد بعث إليه ... الخ».

مشورة موسى على الرسول عليهما السلام في شأن تخفيف الصلاة

(قال): قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم:

فأقبلت راجعاً، فلما مررت بموسى (بن) عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألتني كم فرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كل يوم؛ فقال: إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك.

فرجعتُ فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي، فوضع عني عشرًا ..

ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك.

فرجعت فسألت ربي، فوضع عني عشرًا.

ثم انصرفت فمررت على موسى، فقال لي مثل ذلك.

فرجعت فسألته فوضع عني عشرًا، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك، كلما رجعت إليه.

ص: 286

قال: فارجع فاسأل، حتى انتهيتُ إلى أن وضع ذلك عني، إلا خمس صلوات في كلِّ يوم و ليلة.

ثم رجعت إلى موسى، فقال لي مثل ذلك، فقلت: قد راجعت ربي و سألته، حتى استحييتُ منه، فما أنا بفاعل.

فمن أذهن منكم إيماناً بهنَّ، و احتساباً لهنَّ، كان له أجرُ خمسين صلاةً ..

(مكتوبة).

رواية البخاري في صحيحه

قال النبي صَلَّى الله عليه و سلم:

«بيننا أنا عند البيت بين النائم و اليقظان.

«و ذكر يعني رجلاً بين الرجلين.

ص: 287

«فَأْتَيْتُ بَطَسْتَ مِنْ ذَهَبٍ مُلَيَّءٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا.

«فَشَقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مِرَاقِ الْبَطْنِ.

«ثُمَّ غَسَلَ الْبَطْنَ بِمَاءٍ زَمَزَمَ.

«ثُمَّ مُلِيَءَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا.

«وَأُتِبَتْ بِدَابَّةٍ أَيْضُ دُونَ الْبِغْلِ وَفَوْقَ الْحَمَارِ الْبِرَاقِ.

«فَانْطَلَقَتْ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا.

«قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

«قَالَ: جِبْرِيلُ.

«قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

«قِيلَ: مُحَمَّدٌ.

«قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلُ إِلَيْهِ؟

«قَالَ: نَعَمْ.

«قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمِ الْمَجِيءِ جَاءَ.

«فَأْتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ.

«فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَنَبِيِّ.

«فَأْتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ

«قيل: من هذا؟»

«قال: جبريل.»

«قيل: من معك؟»

«قال: محمد صَلَّى الله عليه و سلم.»

«قيل: أرسل اليه؟»

«قال: نعم.»

«قيل: مرحباً به و لنعم المجيء جاء.»

«فأتيت على عيسى و يحيى.»

«فقالا: مرحباً بك من اخ و نبي.»

«فأتينا السماء الثالثة.»

«قيل: من هذا؟»

«قيل: جبريل.»

«قيل: من معك؟»

«قال: محمد.»

«وقيل: و قد أرسل اليه؟»

«قال: نعم.»

ص: 289

«قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء.»

«فأتيت يوسف فسلمت عليه.»

«قال: مرحباً بك من أخ و نبي.»

«فأتينا السماء الرابعة.»

«قيل: من هذا؟»

«قيل: جبريل.»

«قيل: من معك؟»

«قيل: محمد صلى الله عليه وسلم.»

«قيل: وقد أرسل اليه؟»

«قال: نعم.»

«قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء.»

«فأتينا على ادريس فسلمت عليه.»

«فقال: مرحباً بك من أخ و نبي.»

«فأتينا السماء الخامسة.»

«قيل: من هذا؟»

«قيل: جبريل.»

ص: 290

«قيل: و من معك؟»

«قيل: محمد صلّى الله عليه وسلم.»

«قيل: وقد أرسل اليه.»

«قال: نعم.»

«قيل: مرحباً به و لنعم المجيء جاء.»

«فأتينا على هارون فسلمت عليه.»

«فقال: مرحباً بك من أخ و نبي.»

«فأتينا على السماء السادسة.»

«قيل: من هذا؟»

«قيل: جبريل.»

«قيل: من معك؟»

«قيل: محمد صلّى الله عليه وسلم.»

«قيل: وقد أرسل اليه؟»

«مرحباً به و لنعم المجيء جاء.»

«فأتيت على موسى فسلمت عليه.»

«فقال: مرحباً بك من أخ و نبي.»

«فلما جاوزت بكى.

«ف قيل: ما أبكاك؟»

«قال: يارب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي؟!»

«فأتينا السماء السابعة.

«قيل: من هذا؟»

«قال: جبريل.

«قيل: من معك؟»

«قيل: محمدٌ.

«قيل: وقد أرسل إليه؟»

«مرحباً به و نعم المجيء جاء.

«فأتيت على ابراهيم فسلمت عليه:

«فقال: مرحباً بك من ابن و نبي.

«فرفَع لي البيت المعمور.

«فسألت جبريل.

«فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك

إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخِرَ ما عليهم.

«وُرُفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبتها كأنه قلال هجر و ورقها كأنه آذان الفُيول في اصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران.

«فقال: أما الباطنان ففي الجنة.

«و أما الظاهران النيل و الفرات.

«ثم فرضت عليّ خمسون صلاة.

«فأقبلت حتى جئت موسى.

«فقال: ما صنعت؟

«قلت: فرضت عليّ خمسون صلاة.

«قال: أنا أعلم بالناس منك، عالجت بني اسرائيل أشد المعالجة، وإن امك لا تطيق، فارجع إلى ربك فسله.

«فرجعت، فسألته.

«فجعلها أربعين.

«ثم مثله.

«ثم ثلاثين.

«ثم مثله.

ص: 293

«فجعل عشرين.»

«ثم مثله.»

فجعل عشراً.

«فأتيت موسى.»

«فقال مثله.»

«فجعل خمساً.»

«فأتيت موسى.»

«فقال: ما صنعت؟»

«قلت: جعلها خمساً.»

«فقال: مثله.»

«قلت: سلمت بخير.»

«فنودي: إني قد أمضيت فريضتي و خففت عن عبادي و أجزي الحسنه عشراً.»

قالوا:

«الصحيح انه أُسري بالجسد و الروح في القصة كلها .. و عليه يدل قوله تعالى «سبحانه الذي أسرى بعبده» إذ لو كان مناماً لقال

ص: 294

بروح عبده ولم يقل بعبده ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ..

«ما ذكر من شق الصدر .. واستخراج القلب .. وما يجري مجراه فان السبيل في ذلك التسليم .. دون التعرض بصرفه إلى وجه يتقوله متكلف .. إدعاء للتوفيق بين المنقول والمعقول ..

«البراق، اسم للدابة التي ركبها صلى الله عليه وسلم تلك الليلة .. وقالوا اشتقاقه من البرق .. لسرعته .. وقيل سمي به لشدة صفائه وتألؤ لونه .. وقالوا البراق دابة أبيض وفي فخذه جناحان يحفز بها رجله .. يضع حافره في منتهى طرفه ..

«ذكر أهل السير والمفسرون انه لما ركب البراق أتى إلى بيت المقدس ومعه جبريل عليه الصلاة والسلام .. ولما فرغ أمره فيه .. نُصِب له المعراج وهو السلم .. وصعد فيه إلى السماء .. ولم يكن الصعود على البراق كما يتوهمه بعض الناس .. بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس حتى يرجع عليه إلى مكة ..

«(وقد أرسل اليه؟) أي أطلب وأرسل اليه .. وفي رواية أخرى .. وقد بُعث اليه للإسراء وصعود السماوات .. وقيل كان سؤالهم للاستعجاب بما أنعم الله عليه .. أو للاستبشار بعروجه ..

إذ كان من البين عندهم ان احداً من البشر لا يترقى إلى أسباب السماوات من غير أن يأذن الله له .. ويأمر ملائكته باصعاده .. وإن جبريل عليه الصلاة والسلام لا يصعد بمن لم يرسل اليه .. ولا يفتح له أبواب السماء ..

«مرحباً به) أي بمحمد .. ومعناه لقي رحباً وسعة .. وقيل معناه .. رحب الله به مرحباً .. فجعل مرحباً موضع

الترحيب ..

«ولنعمة المجيء جاء) اي جاء فلنعمة المجيء مجيئه ..

«فأتيت على آدم فسلمت عليه) .. وأمر بالتسليم عليهم .. أي على الأنبياء الذين لقيهم في السماوات .. وعلى خزان السماوات وحراسها لأنه كان عابراً عليهم ..

«فلما جاوزت بكى) قالوا، كان بكاءه صلى الله عليه وسلم .. لأجل الرقة لقومه .. والشفقة عليهم .. حيث لم ينتفعوا بمتابعته انتفاع هذه الأمة بمتابعة نبيهم .. ولم يبلغ سوادهم مبلغ سوادهم ..

«يا رب هذا الغلام) لم يرد موسى عليه السلام بذلك استقصار شأنه .. فان الغلام قد يُطلق ويُراد به القويّ الطريّ الشاب ... والمراد منه استقصار مدته .. مع استكثار فضائله .. وأمته

ص: 296

اتم سواد من امته ..

«وقال الخطابي: قوله (الغلام) ليس على معنى الانزراء والاستصغار لشأنه ... إنما هو على تعظيم منة الله عليه .. مما أناله النعمة .. و تحفه من الكرائم .. من غير طول عمر أفناه مجتهداً في طاعته ..

«(فرفع لي البيت المعمور) اي كُشف لي .. وقُرب مني .. كأنه أراد أن البيت المعمور ظهر له كل الظهور .. وكذلك

سدره المنتهى .. استبينت له كل الاستبانة .. حتى اطلع عليها كل الاطلاع ..

«(آخر ما عليهم) ذلك آخر ما عليهم من دخوله ..

«(ورُفعت لي سدره المنتهى) سميت بها .. لأن علم الملائكة ينتهي اليها .. ولم يجاوزها احد .. إلا رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ..

«(نهران باطنان) قيل: هما السلسبيل والكوثر ..

«(نهران ظاهران) النيل والفرات .. قيل: يخرجان من أصلها .. ثم يسيران حيث اراد الله تعالى .. ثم يخرجان من الأرض ويجريان فيها ..

«(عالجتُ بني اسرائيل) أي مارستهم .. ولقيت منهم الشدة ..

ص: 297

فيما اردت منهم من الطاعة ..

«(فارجع إلى ربك) أي إلى الموضع الذي ناجيت ربك فيه ..

«(فرجعتُ) أي إلى موضع مناجاتي ..

«(فسألته) أي فسألت الله التخفيف.

«(فجعلها) اي فجعل الفريضة التي قدرها اربعين صلاة ..

«(ثم مثله) أي ثم قال موسى عليه السّلام .. مثله ..

«(ثم ثلاثين) أي ثم جعلها ثلاثين صلاة ..

«(ثم مثله) أي ثم قال موسى عليه السّلام مثله ..

«(فجعل عشرين) أي عشرين صلاة ..

«(ثم مثله) أي ثم قال موسى عليه السّلام مثله ..

«(فجعل عشراً) أي عشر صلوات ..

«(فأتيتُ موسى) أي في الموضع الذي لقيته فيه .. فقال موسى ايضاً مثله ..

«(فجعله خمساً) أي خمس صلوات ..

«(فقال: ما صنعتَ؟) اي فقال موسى عليه السّلام: ماذا صنعت فيما رجعت؟. وهذه هي المراجعة الأخيرة ..

«قلتُ: جعلها خمساً) اي خمس صلوات.

«(فقال: سلامت بخير) اي فقال النبي صَلَّى الله عليه و سلم .. لموسى عليه السلام .. سلّمْتُ .. سلّمْتُ له .. ما جعله من خمس صلوات .. فلم يبق لي مراجعة .. لأنني استحييت من ربي .. كما مضى في حديث أبي ذر في اول كتاب الصلاة .. من قوله (ارجع إلى ربك، قلتُ: استحييت من ربي) .. يعني من تعدد المراجعة ..

«(فَنُودِيَ) اي فجاء النداء من قبل الله تعالى .. إني قد امضيت فريضتي .. أي انفذت فريضتي .. بخمس صلوات .. و خففتُ عن عبادي .. من خمسين إلى خمس .. و أجزى الحسنه عشرًا .. فيحصل ثواب خمسين صلاة .. لكل صلاة ثواب عشر صلوات ..

«فان قلت: كيف جازت هذه المراجعة في باب الصلاة .. من رسولنا محمد .. و موسى .. عليهما الصلاة و السلام؟

«قلتُ: لأنهما عرفا ان الأمر الأول غير واجب قطعاً .. و لو كان واجباً قطعاً .. لا يقبل التخفيف»!!

اقول . و شهدت خديجة .. عليها السلام .. ايام ذلك الحادث الفدّ ..

شهدت ايام تلك المعجزة الكبرى .. معجزة الإسراء والمعراج ..

كانت هناك .. في مكة .. تسمع ... و ترى ..

بل كانت أقرب الناس اليه .. صلّى الله عليه وسلم .. في تلك اللحظات المقدسة .. حين عاد من الرحلة ..

كيف كانت مشاعرها .. حين عاد صلّى الله عليه وسلم .. اليها وقد عُرجَ به .. إلى ما وراء السماوات .. بل إلى ما وراء الإدراك!!؟

أم كيف كان شعورها .. وهي تصلي معه الصلاة المفروضة .. بعد أن افترض الله عليه في تلك الليلة .. خمس صلوات!!؟

لقد ازدادت له تصديقاً .. وإيماناً ..

إنَّ أوَّل رجل آمن (وهو أبو بكر) .. قال حين وصف له رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. بيت المقدس: صدقتَ .. أشهد أنك رسول

الله!!

وإن لسان حال خديجة .. عليها السلام .. يقول في نفس المشهد: صدقتَ .. أشهد أنك رسول الله!!

ص: 300

لمأذا؟!!!

لأن أبا بكر .. كان أول من آمن من الرجال ..

ولأن خديجة .. كانت أول من آمن من النساء ..

فتحتم أن تستقبل خديجة معجزة الإسراء والمعراج .. بمثل ما استقبل أبو بكر الاسراء والمعراج!!

ص: 301

وفاة .. ابي طالب؟!!

ص: 303

قال ابن الاثير:

«توفي أبو طالب .. وخديجة .. قبل الهجرة بثلاث سنين .. وبعد خروجهم من الشعب ..

«فتوفي أبو طالب في شوال .. أو في ذي القعدة ..

«و عمره بضع و ثمانون سنة ..

«فعظمت المصيبة على رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. بهلاكهما ..

«فقال رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم: ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب ..

«و ذلك أن قريشاً وصلوا من أذاه بعد موت أبي طالب .. إلى ما لم يكونوا يصلون اليه في حياته .. حتى ينثر بعضهم التراب على رأسه!!

«و حتّى إنّ بعضهم يطرح عليه رحم الشاة و هو يصلي!!

ص: 305

وكان رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. يُخرج ذلك على العود .. ويقول: أَيُّ جوار هذا يا بني عبد مناف!

«ثم يلقيه بالطريق.»

وقال ابن هشام

وفاة ابي طالب و خديجة ..

صبر الرسول على اىذاء المشركين

«وكان النَّفَرُ الذين يُؤذون رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. في بيته أبا لَهَب، و الحَكَمَ بن العاص بن أميَّة، و عُقبة بن أبي مُعيط، و عدي بن حَمراء التَّقفي، و ابن الأصداء الهذلي؛ و كانوا جيرانه لم يُسلم منهم أحد إلا الحَكَم بن أبي العاص، فكان أحدهم -فيما ذكر لي- يطرح عليه .. صَلَّى الله عليه وسلم .. رَحْم الشاة

ص: 306

و هو يُصَلِّي، و كان احدهم يطرحها في بُرْمته(1) إذا نُصبت له، حتى اتخذ رسولُ الله .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجْرًا(2) يستتر به منهم إذا صَلَّى، فكان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى، كما حدثني عمرُ بن عبد الله بن عُرْوَةَ بن الزبير، عن عُرْوَةَ ابن الزبير، يخرج به رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العود، فيقف به على بابه.

ثم يقول. يا بَنِي عبد مناف، أَيُّ جوارٍ هذا!

ثم يُلقِيه في الطريق.

طمع المشركين في الرسول

بعد وفاة ابي طالب و خديجة!

قال ابن إسحاق

ثم أن خديجة بنت خويلد و أبا طالب هَلَكَا في عام واحد،

ص: 307

1- البرمة: القدر من الحجر.

2- الحجر: كل ما حجرته من حائط.

فتتابعت على رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم المصائبُ بهُلكَ خَديجة.

و كانت له وَزِيرَ صِدْقٍ على الاسلام، يشكو اليها.

و بهُلكَ عمه أبي طالب، و كان له عضداً و حِرْزاً في أمره، و مَنَعَةً و ناصراً على قومه، و ذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين.

فلما هلك أبو طالب، نالت قريشٌ من رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم من الأذى ما لم تكن تَطْمَعُ به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سَفِيهُ من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً.

قال ابن إسحاق

فحدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال:

لما نثر ذلك السفِيُّ على رأس رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم ذلك الترابَ، دخل رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بيته و الترابُ على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه الترابَ و هي تبكي، و رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم يقول لها: لا تبكي يا بُنية، فإن الله مانعٌ أباك.

قال: و يقول بين ذلك. ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات ابو طالب.

ص: 308

المشركون عند أبي طالب لما ثقل به المرض ..

يطلبون عهداً بينهم وبين الرسول ..

قال ابن إسحاق:

ولما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقله، قالت قريش بعضها البعض: إن حمزة وعُمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليُعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا (1) أمرنا.

قال ابن إسحاق:

فحدثني العباس بن عبد الله بن معبد، عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال:

مَشُوا إلى أبي طالب فكلموه، وهم اشراف قومه. عتبة

ص: 309

1- ابتزه أمره: سلبه إياه و غلبه عليه.

ابن ربيعة، و شيبه بن ربيعة، و أبو جهل بن هشام، و أمية بن خلف، و ابو سفيان بن حرب، في رجال من اشرافهم.

فقالوا: يا ابا طالب، إنك منا حيث قد علمت، و قد حَضَرَكَ ما ترى، و تخوَّفنا عليك، و قد علمتَ الذي بيننا و بين ابن اخيك، فادعُه، فخذ له منا، و خذْ لنا منه، ليكفَّ عنا، و نكفَّ عنه، و ليدعنا و ديننا، و ندعه و دينه.

فبعث اليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا بن أخي، هؤلاء اشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليُعطوك، و ليأخذوا منك.

قال: فقال رسول الله صلَّى الله عليه و سلم: نعم، كلمة واحدة تُعطونها تملكون بها العرب، و تدين لكم بها العجم. قال: فقال أبو جهل: نعم و أبيك، و عشر كلمات. قال: تقولون لا إله إلا الله، و تخلعون ما تعبدون من دونه.

قال: فصَفَّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إنَّ أمرَكَ لَعَجَب!

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا و امضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم و بينه.

قال : ثم تقرّقوا.

طمع الرسول في اسلام ابي طالب .. و حديث ذلك!؟

فقال ابو طالب لرسول الله صلّى الله عليه و سلم: والله يا بن اخي، ما رأيتك سألتهم شططا.

قال: فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله صلّى الله عليه و سلم في إسلامه، فجعل يقول له. أي عمّ، فأنت فقلها استحلّ لك بها الشفاعة يوم القيامة.

قال: فلما رأى حرص رسول الله صلّى الله عليه و سلم، قال: يا بن أخي، والله لولا مخافة السُّبّة عليك و على بني أبيك من بعدي، و أن تظن قريش إني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها.

قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت، قال: نظر العباس اليه يحرك شفّتيه، قال. فأصغى اليه بأذنه.

قال: فقال يا بن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته

ص: 311

أن يقولها.

قال: فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: لم أسمع.

ما نزل فيمن طلبوا العهد على الرسول عند أبي طالب!

قال: وأنزل الله تعالى في الرَّهْطِ الَّذِينَ كَانُوا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ مَا قَالُوا، وَرَدُّوا عَلَيْهِ مَا رَدُّوا

«ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ»..

إلى قوله تعالى:

«أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ».

ص: 312

يعنون النصارى .. لقولهم.

«إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ»

«إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلاق.»

أقول .. و مات الرجل النبيل الجليل .. أبو طالب بن عبدالمطلب ..

مات في النصف من شهر شعبان .. في السنة العاشرة .. من مبعث رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم.

جاء عن ذلك .. في كتاب «خديجة أم المؤمنين»

«كان موت أبي طالب صدمة عنيفة أصابت النبي الوفي لأهله و لكل من قدم اليه معروفاً.

فقد كان أكثر الناس حفاوة به و اكراماً له منذ طفولته عندما وصاه به جده عبد المطلب، إذ بادر بضم ابن اخيه إلى اولاده يقاسمهم السراء و

الضراء، و كان يحبه حباً شديداً، فكان لا ينام إلا

ص: 313

إلى جنبه، ويخرج خارج البيت فيخرج معه.

وما زال كذلك حتى كبر وبلغ اثنتي عشرة سنة، ألف أثناءها صحبته.

فلما أراد ابو طالب المسيرة إلى الشام للتجارة مع القافلة القرشية، قال له ابن أخيه: «أي عم، إلى من تخلفني ههنا، فمالي أم تكفلني، ولا أحد يؤويني؟»

فرق له ثم اردفه خلفه، ورحلا معاً في القافلة حتى نزلت بجوار صومعة يتعبد فيها راهب يدعى «بحيرا»، فما إن رأى هذا الغلام مع عمه حتى جعل يتفرس فيه ويدحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى علامات في جسمه كان يعلم عنها من القراءة في كتبه المقدسة.

فلما كشف على ظهره، رأى خاتم النبوة بين كتفيه فقبله، وأخذ يوصي عمه به، ويحذره من غدر اليهود، فإن الله قد اختاره ليكون نبي هذه الأمة.

وأراد الله ان يكون هذا النبي من العرب، واليهود يريدون أن تكون النبوة مقصورة على بني إسرائيل، ولذلك فسوف يحسدونه، ولن يتورعوا عن القضاء عليه إذا سنحت لهم الفرصة ووجدوا إلى قتله سبيلاً.

ثم شب ابن أخيه في كنفه، فكان احب الناس اليه، يفضله

و يقدمه على أولاده، و يحوطه بعطفه و رعايته، و يعنى بتنشئته حتى كبر و أصبح رجلاً

«افضل قومه مروءة، و أحسنهم خلقاً، و أكرمهم مخالطة، و أحسنهم جواراً، و أعظمهم حتماً و أمانة، و أصدقهم حديثاً، و أبعدهم من الفحش و الأذى».

و تحققت نبوءة الراهب «بحيرا»، و نزل جبريل على رسول الله عندما بلغ الأربعين، فأخبره أن الله اصطفاه و ارسله نبياً شاهداً، و مبشراً و نذيراً إلى قومه و إلى الناس كافة، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، و إلى الأخلاق الفاضلة، و ينهاهم عن كل فاحشة.

فأبى زعماء الأرسقراطية الوثنية أن يصدقوه، و رفضوا أن يتركوا الشرك بالله، فجعلوا الأوثان له انداداً و شركاء، و حاربوه حرباً عنيفة شرسة.

و لكن أبا طالب وقف في وجه شياطينهم يذود عنه، و نشر عليه مظلة من حمايته، فلم يستطيعوا أن يحولوا بينه و بين رسالته برغم ما قاسى هو و الذين آمنوا معه من عناء و تعذيب، إلى أن كانت المقاطعة الظالمة و الحصار اللعين، فدخل معه أبو طالب ثلاثة أعوام في الشعب، قاسى فيها شظف العيش، حتى أذن الله لنيبه بالنصر، فخرج ابو طالب و ابن أخيه و انصارهما موفوري الكرامة، و اصبحت لهم بين القبائل الكفة الراجحة، و أصاب

فلما مات ابو طالب تنفس المشركون الصعداء، لأن هذا الشيخ كان وحده القادر على ان يجمع حوله بني هاشم و بني المطلب الذين كانوا يأترون بأمره و يتبعونه دون جدال او مناقشة.

كما كان متصلاً بالنسب مع عشائر قريش الأخرى و بخاصة مع باقي بطون عبد مناف.

فكانت قريش كلها تحترمه و تهابه، و لذلك نجح في تكوين جبهة صلبة و قفت بجواره تذود معه عن ابن اخيه، و افلح في تعضيده و نصرته حتى النصر في معركة المقاطعة على شدتها، و ذاقوا امام صبره و كفاحه الهزيمة الشنيعة.

و لكن موته المفاجيء، بعد هذا النصر، قلب الموقف رأساً على عقب، فتغير ميزان القوى بين الفريقين، و رجحت كفة المشركين، و شعروا بالقوة و غلبة الكثرة بعد الضعف، و استرجعوا كبرياءهم.

و تطلع شياطينهم مرة أخرى إلى القضاء على «محمد» رغبة منهم في اجتثاث دعوته من جذورها حتى ينصروا او ثانهم و يسترجعوا ما فقدوه من كرامتهم، و اخذوا يتحينون لذلك الفرصة المواتية للانقضاض عليه.

ولما توفي أبو طالب ذهب عليّ، كرم الله وجهه، إلى رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. فأبلغه الخبر .. فحزن الرسول الوفي حزناً شديداً ..

وقال لعليّ:

«اذهب وغسله وداره غفر الله له ورحمه» ..

وغلب عليه الحزن .. فقال إنه سوف يستغفر له ربه ما لم ينهه الله عن ذلك ..

«واعتكف في منزله يستغفر الله له ويبكيه ..»

ثم ماذا؟!!

ثم مصيبة اخرى .. قد تكون اشد من موت أبي طالب!!

ص: 317

وفاة .. ام المؤمنين خديجة .. عليها السلام!؟

ص: 319

ابن الأثير فيقول:

«توفي أبو طالب .. و خديجة .. قبل الهجرة بثلاث سنين .. وبعد خروجهم من الشعب ..

«فتوفي أبو طالب في شوال .. او في ذي القعدة .. وعمره بضع وثمانون سنة.

«و كانت خديجة ماتت قبله بخمسة و ثلاثين يوماً .. وقيل . كان بينهما خمسة و خمسون يوماً .. وقيل . ثلاثة ايام ..

«فعظمت المصيبة على رسول الله ... صلى الله عليه وسلم .. بهلا كهما ..»

اقول .. عند ابن الأثير .. انّ خديجة .. ماتت قبل أبي طالب ..

ص: 321

و أما في «أسد الغابة» فيقول:

عن ابن إسحاق قال:

«ثم إن خديجة توفيت بعد ابي طالب .. و كانا ماتا في عام واحد .. فتتابعت على رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. المصائب بهلاك خديجة و ابي طالب .. و كانت خديجة و زيرة صدق على الاسلام .. كان يسكن اليها ..

و قال أبو عبيدة معمر بن المثنى:

«توفيت خديجة قبل الهجرة بخمس سنين ..

«و قيل . باربع سنين» ..

و قال عروة و قتادة:

«توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين ..

«و هذا هو الصواب ..

و قالت عائشة:

«توفيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة ..

«قيل: إن وفاة خديجة كانت بعد ابي طالب بثلاثة

ص: 322

ايام ..

«وكان موتها في رمضان ..

«و دفنت بالحجون ..

«قيل: كان عمرها خمساً وستين سنة.»

اما الامام العيني في شرحه على البخاري فيقول:

«كانت إذ تزوجها رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. بنت اربعين سنة ..

«واقامت معه أربعاً وعشرين سنة ..

«و توفيت وهي بنت أربع وستين سنة .. وستة أشهر ..

«و توفيت قبل الهجرة بخمس سنين .. وقيل بربع ..

و قال قتادة:

«قبل الهجرة بثلاث سنين ..

قال أبو عمر:

«قول قتادة عندنا أصح ..

وقال أبو عمر:

ص: 323

«يقال إنها توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام ..

«توفيت في شهر رمضان ..

«و دفنت في الحَجون ..

و أما في كتاب (خديجة ام المؤمنين) فيقول:

«و انتقلت إلى جوار الواحد الأحد ..

«في اليوم العاشر .. من شهر رمضان ..

في العام العاشر .. من بداية إشراق فجر الاسلام ..

«بعد موت ابي طالب بشهر و خمسة أيام ..»

ماذا نستخلص من هذه الروايات!؟

أنَّ خديجة .. عليها السلام .. ماتت بعد وفاة أبي طالب، بأيام معدودات ..

و أنها توفيت .. قبل الهجرة بثلاث سنين .. وهذا هو الأصح ..

وأنَّ عُمرها عند الوفاة كان خمساً و ستين سنة .. وقيل: و هي بنت أربع و ستين سنة و ستة أشهر .. أي و هي تقطع العام الخامس و الستين

..

وأنَّ وفاتها كانت في اليوم العاشر من شهر رمضان .. في العام

ص: 324

العاشر من البعثة.

وأنها دُفنت في الحجون .. بمكة المكرمة.

هذا ما تيسّر لنا استخلافه .. في شأن وفاة أم المؤمنين .. خديجة .. عليها السلام ..

أما تصوير مشهد الوفاة .. كما ذهب إلى ذلك .. بعض من كتبوا في الموضوع ..

فإني لا أفعل كما فعلوا ..

لكن أقول: ينبغي تنزيه المقام .. عن لغو الكلام!!

ص: 325

شخصية خديجة .. عليها السلام!؟

ص: 327

لماذا

اختارها الله .. من دون نساء العالمين .. لتكون زوجاً له .. صَلَّى الله عليه وسلم .. قبل النبوة .. وفي بداية النبوة؟!!

لماذا كانت ذات مال؟!!

لماذا كانت هي أَوَّل مَنْ آمَنَ عَلَى الْإِطْلَاق .. لم يسبقها رجل ولا امرأة إلى الإسلام؟!!

لماذا .. ولماذا .. ولن تجد جواباً على هذا .. حتى تفرغ من قراءة هذا الفصل كاملاً!!!

ص: 329

أَوَّلَ خَلْقِ اللَّهِ اسْلَمَ ..

بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ؟! ..

هَذَا مَقَامٌ عَظِيمٌ .. تَنفَرِدُ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ .. عَلَيْهَا السَّلَامُ ..

قَالُوا:

«خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ..

أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ..

«زَوْجُ النَّبِيِّ .. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

«أَوَّلُ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا ..

«وَأَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ اسْلَمَ ..

«بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ..

«لَمْ يَتَقَدَّمْهَا رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ.»!!

مَا مَعْنَى هَذَا؟!

ص: 330

معناه أنها تنفرد بمقام .. لا يشاركها فيه أحد .. رجلاً كان أو امرأة ..

معناه أن على كل رجل .. وعلى كل امرأة .. في هذه الأمة، إلى أن تقوم الساعة، أن يُوقرها، ويعرف لها فضلها وسبقها ..

إن فرّق ما بين إيمان خديجة .. وإيمان فردٍ منا، كفرّق ما بين السماء والأرض ..

جاءها .. يُقَصُّ عليها، ما كان من بدء الوحي اليه .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

فكانت له .. قُرّة عين .. ومودّة .. وإيماناً فوق ذلك!!

إن مصيبتنا وبلّيتنا، نحن أبناء الاسلام اليوم .. أننا أخذنا الإسلام ميراثاً عن الآباء .. سهلاً لِيناً سائغاً للشاربين ..

صلوات نُؤديها، وتسيّحات نهتُّ بها .. ثم نتمطى إلى فرُشنا، كسالى .. لا نفقه من هذا الاسلام شيئاً .. إلا أن نتعبد لندخل الجنة!!

لكن هؤلاء .. لم يكونوا كذلك ..

كانوا شيئاً آخر .. كانوا زلزلة تزلزل الأرض .. فتستجيب لهم السماء ..

ص: 331

اشتركوا في بناء بنيان الاسلام، لبنة لبنة ..

وتعبوا وضحوا بالأنفس والأموال والأوطان والأولاد والآباء، ليرتفع البناء.

ثم جئنا من بعدهم بغبائنا، ورثنا هذا الاسلام، فأثقلناه بجهلنا وهننا وضعفنا ..

وبلغ من هوانٍ .. أن جمدنا الاسلام الذي هو أوسع من السماوات والأرض .. جمدناه في صلوات وتراتيل!!

لكن اصحابه كانوا شيئاً آخر .. غير هذا الغناء!!

فإذا قيل .. خديجة أول خلق الله أسلم .. باجماع المسلمين .. لم يتقدمها رجل ولا امرأة، تحتم على عقولنا أن نتفكر ..

كيف كانت عزيمة امرأة، تواجه حدثاً جديداً كهذا لأول مرة في حياتها، و حياة العالم أجمع؟!!

ألم تُفكر تلك المرأة العظيمة .. ما معنى أن زوجها قد صار نبياً .. وما يستتبع ذلك من متاعب تعجز عن حملها

الجبال؟!!

ها هو ورقة ابن عمها .. يؤكد لزوجها .. أن قومهم سوف يؤذونه، ويخرجونه ..

ص: 332

فماذا هي صناعة آنذاك .. حين يفعلون أفاعيلهم بزوجها وبها؟!

إنما مثَلُ خديجة .. لحظة إيمانها برسول الله .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. كمثل مَنْ فاجأته ریح عاصف قاصف، وهو في وَسَطِ البحر، فإن لم يستجمع قواه كلها .. ابتلعه البحر و اغرقه ..

كذلكم كانت .. وهي تستمع اليه .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كانت قوّة قاهرة .. قهرت ظلمات الكفر و الشرك و الضلال ..

و خرجت من تلك الظلمات كلها، إلى النور ..

فأمنت به، و بما رأى.

و هتفت، من أعماق فؤادها:

«كَلَّا .. والله .. ما يُخزِيكَ اللهُ ابداً»!!

فأين إيمان امرأة آمنت اليوم ..

من إيمان امرأة، استقبلت الموجة الأولى و خدها ..

لم يكن فوق الأرض .. مؤمناً .. و لا مؤمنة .. إلا إياها!!

ص: 333

عليها السلام!!

الطاهرة!؟

«كانت تدعى في الجاهلية: الطاهرة» ..

اشتهرت خديجة قبل الاسلام بالطاهرة ..

فما معنى هذا؟

معناه أن هناك اجماعاً من قومها على فضائلها و حسن أخلاقها!!

كانت تاجرة!؟

«كانت خديجة امرأة تاجرة .. ذات شرف و مال ..»

أقول .. أصلح الناس للسياسة .. الذين يعملون في التجارة، لأن التاجر يباشر الحياة يومياً .. ويلتقي مع نوعيات من البشر ..

ص: 334

فيكسبه ذلك معرفة بحقائق الحياة .. و واقع الناس ..

ومن هنا .. أدركت خديجة في سرعة .. عظمة معدن رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. وأنه معدن آخر .. غير معادن الرجال ..

«و عرضت عليه ان يخرج في مالها إلى الشام تاجرا .. و تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ..»!!

حازمة .. لبيبة .. شريفة؟!!

«و كانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة ..»

هذه عناصر مكونات شخصيتها ..

حازمة؟! تدير الأمور في حزم وعزم .. لا تسبب ولا إهمال ..

لبيبة .. سريعة الفهم .. سريعة الادراك .. تمتاز بذكاء خارق ..

شريفة .. فهي من أعلى نساء قريش نسباً .. وهي شريفة الخصال .. تنأى عن سفاسف الأمور .. و تسعى إلى أعاليها ..

ص: 335

و هذه كلها صفات لازمة .. و مطلوب توافرها في المرأة التي سوف ترشحها الأقدار لتكون زوجة للنبي القادم!!

أعظم نساء قريش شرفاً؟!

كانّ المطلوب هو البحث عن امرأة .. على أن تكون خير امرأة في قريش .. لتصبح زوجاً .. لخير رجل في قريش ..

فكانت خديجة .. خير امرأة في قريش ..

هي التي تصلح زوجة .. لخير رجل في قريش .. محمد .. الأمين ..

و سارت الأمور .. لتحقيق ذلك الهدف

«إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» ..

نعم .. إنه التدبير الإلهي .. المُحكّم!!

«فلما أخبرها ميسرة .. بعثت إلى رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. فقالت له:

ص: 336

«إني قد رَغِبْتُ فيكَ .. لِقْرَابَتِكَ مِنِّي .. و شَرَفَكَ فِي قَوْمِكَ .. و أَمَانَتَكَ عِنْدَهُمْ .. و حَسَنَ خُلُقِكَ .. و صَدَقَ حَدِيثَكَ» ..
إنها تبحث عن أعظم رجل في قريش .. تبحث عن الرجل الذي يوازيها في المحاسن .. ليكون نداءً لها .. أهلاً لزواجها ..
فوجدته .. بل وجدت أعظم مما كانت تتصور ..

فهو أشرف قومه نسباً ..

و أعظمهم أمانة .. (الأمين) ..

و أحسنهم خُلُقاً ..

و أصدقهم حديثاً ..

«ثم عرضت عليه نفسها ..

«و كانت أوسط نساء قريش نسباً ..

«و أعظمهم شرفاً ..

«و أكثرهم مالاً ..»!!

فالتقت في زواجهما .. المحاسن بالمحاسن ..

كل أولئك كان عند ربك مقدوراً!!

ص: 337

فولدت .. أولاده كلهم .. الا ابراهيم؟!

«ولدت له خديجة غلامين .. و أربع بنات ..»

فما الاشارة من هذا؟.

الاشارة أنها سيده و دود و لود .. و هاتان الصفتان هما خير صفات الزوجة الصالحة ..

و كانت من صفات خديجة ..

فقد ثبت أنها ولدت لمن تزوجها قبل رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم ..

«و كانت خديجة .. قبل رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. تحت ابي هاله بن زُرارة ..

«ثم خلف عليها .. بعد أبي هالة .. عتيقُ بن عابد ..

«فولدت له (هند بنت عتيق) ..»

ص: 338

وقد ورد كذلك أنها ولدت لأبي هالة ..

«هند بنت أبي هالة .. و هالة بن أبي هالة» ..

«فهند بنت عتيق ..

«و هند .. و هالة .. إبننا أبي هالة .. كلهم إخوة اولادِ رسول الله .. صَلَّى الله عليه و سلم .. من خديجة.»

ثم ماذا؟!

ثم كانت الذرية الطاهرة فيما بعد .. من نسل خديجة!!

اعظم لحظة في حياتها؟!

تقدم أن اعظم لحظة في حياتها .. كانت حين استقبلت مفاجأة الوحي .. وقالت:

« كلا .. والله .. لا يُخزبك الله أبداً» ..

ولكن الجديد هنا هو: ما هي شخصية خديجة .. في ضوء هذا المشهد؟!

ص: 339

يدلّ هذا المشهد على أنها شخصية قوية غاية القوة ..

«فرجع بها رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. يَرْجُفُ فؤاده .. فدخل على خديجة .. فقال زَمِّلُونِي .. فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع .. و قال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خَشِيتُ على نفسي ..

«فالت خديجة: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً .. إنك لتصل الرحم ..»

الخ ..

ها هنا قوة الشخصية .. لم تتزلزل .. لم ترتجف .. لم تتوهم أوهاماً كما هي عادة النساء ..

وإنما ثبات و تثبت .. وتأكيد و تبشير لرسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

ثم أتبع ذلك كله بما يدلّ على رجاحة عقلها .. وأنها حقاً امرأة لبيبة ..

«وانطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل ..

«يا ابن عمّ .. اسمع من ابن أخيك» ..

ص: 340

هكذا تصرفت سريعاً!!

عقل راجح .. و حزم في الامور!!

قوة عقلية خارقة؟!!

عن خديجة أنها قالت لرسول الله .. صلّى الله عليه وسلم:

«يا ابن عم .. هل تستطيع أن تُخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟

«قال: نعم ..

«فبينما رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. عندها .. إذ جاءه جبريل ..

«فقال رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم: هذا جبريل قد جاءني ..

«فقلت: أترأه الآن؟

«قال: نعم.

«قلت: اجلس على شِقِّي الأيسر ..

«فجلس ..

ص: 341

«فقلت: هل تراه الآن؟»

«قال: نعم ..»

«قلت: فاجلس على شقي الأيمن ..»

«فجلس ..»

«فقلت: هل تراه الآن؟»

«قال: نعم ..»

«قلت: فتحوّل فاجلس في حجري ..»

«فتحول رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. فجلس ..»

«فقلت: هل تراه؟»

«قال: نعم ..»

«قال: فتحسّرت (قعدت حاسرة مكشوفة الرأس) و ألقّت خمارها ..»

«فقلت: هل تراه؟»

«قال: لا ..»

«قلت: ما هذا شيطان .. إن هذا لَمَلَك يا ابن عمّ .. أثبت وأبشر ..»

ص: 342

«ثم آمنت به ..

«وشهدت ان الذي جاء به الحق.»!!

أقول .. هذه قصة خطيرة جداً .. في فهم شخصية خديجة ..

إنها قامت باختبار معلمي -بلغة اليوم- لتتأكد بنفسها هل الجائي ملك أم شيطان ..

ثلاث مرات .. تطلب من رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم. أن يجلس ..

«اجلس على شقّي الأيسر ..

«فأجلس على شقّي الايمن ..

«فتحوّل .. فأجلس في حجري ..»

وفي كل مرة تسأله: هل تراه الآن؟

ورسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. يجيب في كل مرّة: نعم!!

ثم التقت خمارها .. وقعدت مكشوفة الرأس ..

ص: 343

فقال: هل تراه؟

قال: لا ..

فاستدلت بعقريتها .. وبالتجربة العملية التي لا تكذب .. على ان الذي يأتي إلى رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. مَلَكٌ وليس بشيطان!!

«ما هذا شيطان .. إن هذا لَمَلَكٌ يا ابن عمِّ .. اثبت وأبشر..»

و تأكد لخديجة أنه مَلَكٌ .. وما هو بشيطان .. حين اختفى من المجلس عندما جلست مكشوفة الرأس .. لأن الملائكة لا تطلع على العورات!

أختبارات معملية .. و نتائج عملية .. واستنتاجات منطقية .. اليس هذا دليل العبقرية؟!

اثبت .. وابشر؟!

أن تتأكد خديجة أن الذي يأتي مَلَكٌ وليس بشيطان .. قد

ص: 344

يكون هذا شيئاً ممكناً من امرأة ممتازة عقلاً و تفكيراً ..

ولكن الذي يثير الدهشة حقاً .. أن تبادر لفورها إلى الايمان، برسول الله .. صلى الله عليه وسلم ..

«ما هذا شيطان ..

«إن هذا لَمَلَك يا ابن عمّ ..

«أثبت!!

«و ابشر!!

«ثم آمنت به!!

«و شهدت أن الذي جاء به الحق!!»

ولا تحسبن أن هذه المواقف ممكنة لأي بشر ... كلاً .. فإنها تؤمن بشيء لم يسبقها اليه أحد .. وهذا يحتاج إلى قوة خارقة .. توازي القوى المضادة للايمان .. توازي قوة الناس جميعاً آنذاك .. حيث لم يكن مؤمناً على وجه الأرض إلا خديجة!!

و أعجب و أعجب ..

ان تثبت رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. و ان تبشره ..

«اثبت .. و ابشر!!»

فهل في النساء مثل خديجة؟!

ص: 345

فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا؟!

«وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ..

«وصدق بما جاء به ..

«فخفف الله بذلك عن رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ..

«لا يسمع شيئاً يكرهه من ردِّ عليه .. وتكذيب له .. فيحزنه ..

«إلا فرَّجَ اللهُ عنه بها ..

«إذا رجع إليها تُبَيَّنَتْه .. وتخفَّفَ عنه .. وصدَّقَه ..

«و تهون عليه أمر الناس .. رضي الله عنها.»

اقول .. هذا أخطر دور لخديجة في حياة رسول الله ..

ص: 346

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

فردٌ .. واحدٌ .. لا ثاني له ..

حَمَلَهُ اللهُ .. أَثْقَلَ تَكْلِيفَ يُلْقَى عَلَى بَشَرٍ ..

لا أَحَدَ مِنْ حَوْلِهِ .. يُوْمِنُ بِهِ .. أَوْ يُصَدِّقُهُ ..

فَتَتَقَدَّمُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ إِلَيْهِ .. وَهُوَ وَحْدَهُ ..

وَحِيداً؟! لا يَجِدُ مِنْ يُصَدِّقُهُ مِنَ النَّاسِ ..

فَتَاتِي سَيِّدَةَ الْإِسْلَامِ الْأُولَى .. فَتُوْمِنُ بِهِ .. وَتَصَدِّقُ بِمَا جَاءَ بِهِ.

وَيَشْعُرُ .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ .. أَنَّ هُنَاكَ بَشَرًا يُصَدِّقُهُ!!

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ .. يَا أُمَّةَ .. يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ..

حِينَ أَنْسَتَ رَسُولَ اللهِ .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

وَحِينَ خَفَّتِ عَنْهُ ..

وَحِينَ صَدَّقَتْ بِمَا جَاءَ بِهِ!!

ص: 347

لماذا بيتها في الجنة .. لا صَحَبَ فيه ولا نصب؟!

كما جعلت بيتها في الدنيا .. جنة .. لا صَحَبَ فيها ولا نصب ..

فإن الجزء من جنس العمل .. جعل الله بيتها في الجنة .. لا صخب فيه ولا نصب!!

وهذا دور آخر خطير .. قامت به خديجة .. في حياة رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

خمساً وعشرين سنة، جعلت فيها بيتها جنة وارفة الظلال، فلا ضجيج ولا صخب .. ولا نَصَب -أي تعب- يصيب

رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. في بيتها .. وإنما هي تحمل عنه متاع الحياة الزوجية وهمومها ..

ما أعظم الدور الذي قامت به خديجة .. في حياة رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

ص: 348

فهي تعمل دائماً ليكون أسعد زوج ..

و هو حريص أن يجعلها أسعد زوجة ..

فلما أكرمه الله بالنبوة .. كانت أشد حرصاً عن ذي قبل .. على تحقيق الجو الملائم لتلك المرحلة لخطيرة ..

فزادت من حفاوتها .. برسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

وزادت من السكينة اللازمة لتنزل الوحي .. و لقاء الملائكة ..

فأعطاه الله. بدلاً من بيتها في الدنيا .. الذي هو بيت رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم ..

بيتاً في الجنة من قَصَب .. لا صَخَب فيه ولا نَصَب!!

و هل جزاء الإحسان، إلا الإحسان؟!!

إشارة جميلة جداً؟!!

خديجة جعلت بيتها مدة خمس وعشرين سنة .. جنة لا تسمع فيها صخباً، ولا تحس فيها بنصب ..

و كل ذلك كان منها عن حُبِّ و تضحية وإخلاص ..

و كان لذلك أكبر الأثر في حياة زوجها .. صَلَّى الله عليه وسلم .. وأداء الرسالة التي أمره الله بابلاغها.

فأثابها بدلاً من الخمس وعشرين سنة .. نعيماً أبدياً ..

ص: 349

وبدلاً من بيتها من الطين والحجارة .. بيتاً من قَصَب، من لؤلؤ مجوف ..

وبدلاً من السكون والسكينة، في بيتها الدنيوي .. بيتاً لا صخب فيه ولا نصب!!

احدى الكاملات الاربع؟

عن ابن عباس قال:

«خطّ رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. في الأرض أربع خطوط ..

قال: أتدرون ما هذا؟

«قالوا: الله ورسوله أعلم ..

«فقال رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم:

«أفضل نساء اهل الجنة خديجة بنت خويلد ..

«وفاطمة بنت محمد ..

«ومريم بنت عمران ..

«وآسية بنت مُزاحم امرأة فرعون.»»

[مسند الإمام أحمد]

ص: 350

أما خديجة .. فهي ما علمتَ وقرأتَ ..

عبقريّة في اختيار محمد .. صلّى الله عليه وسلم .. زوجاً لها ..

القت بأشراف قريش بعيداً .. وعرضت نفسها عليه ..

فأثبتت بذلك عبقريتها في اختيار الرجال!

و عبقرية في التمييز بين الحقّ و الباطل ..

القت بمعتقدات قومها كلها .. و آمنت بالله ورسوله .. قبل أن يؤمن بذلك أحد على ظهر الأرض!!

و عبقرية في تحويل بيتها إلى معبد يموج بأموج الايمان ..

فبدأت بنفسها فأمنت ..

ثم دفعت بناتها الأربع فأمنّ ..

و آمن عليّ بن أبي طالب ..

و آمن زيد بن حارثة ..

فتحول البيت إلى معبد .. على رأسه رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم ..

هي وبناتها الأربع مؤمنات ..

و عليّ بن أبي طالب .. أول صبيّ آمن ..

و زيد بن حارثة .. أول من آمن بعد عليّ في البيت

الكريم ..

فتحول البيت النبوي إلى معبد .. يموج بالايمان موجاً ..

كما تتلألاً عبقريتها في تثبيتها لرسول الله .. صلّى الله عليه و سلم:

«اثبت وأبشر» ..

اني رزقت حبها؟!!

ها هنا مفتاح خطير .. من مفاتيح الشخصية ..

أن رسول الله .. صلّى الله عليه و سلم .. كان يُحبّها ..

ونص الحديث:

عن عائشة قالت:

«ما غرّت علي نساء النبيّ .. صلّى الله عليه و سلم.

«إلا علي خديجة .. واني لم أدركها ..

«قالت: و كان رسولُ الله .. صلّى الله عليه و سلم .. إذا دَبِحَ الشاةَ فيقولُ:

ص: 352

أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة ..

«قالت: فأغضبته يوماً .. فقلت: خديجة ..

«فقال رسول الله .. صلى الله عليه وسلم: إني قد رزقت حبها.»

[أخرجه مسلم]

و من حيث أن النبي .. صلى الله عليه وسلم .. لم يتزوج على خديجة حتى ماتت.

فمعنى هذا ان خديجة .. منفردة .. ظفرت بحب النبي .. صلى الله عليه وسلم .. لها .. مدة خمس وعشرين سنة ..

و من حيث أن النبي .. صلى الله عليه وسلم .. كان يذكرها كثيراً بعد مماتها.

فمعنى هذا أن خديجة .. كانت أحب نسائه إليه .. حية .. وميتة ..

أما في حياتها .. فقد انفردت بحبه .. لم يشركها في حبه احد من النساء، حيث لم يتزوج عليها حتى ماتت ..

و أما في مماتها .. فكانت أحب إليه، و كان حبه إياها .. يثير غيرة عائشة ..

ص: 353

عن عائشة قالت:

«ما غرّتُ على امرأةٍ .. ما غرّتُ على خديجةٍ ..

«و لقد هلكتُ قبل ان يتزوَّجني بثلاثِ سنينَ.

«لِما كنتُ أسمعُهُ يذكُرُها ..

«و لقد أمرهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ أن يُبسِّرها بيئتٍ من قصبٍ في الجنَّةِ ..

«و إن كان ليذبحُ الشاةَ ثم يُهديها إلى خلائلِها.»

[أخرجه مسلم]

وفي هذا الحديث دلائل حُبِّه .. صَلَّى اللهُ عليه و سلم .. لخديجة .. بعد موتها ..

فإن علامة الحبِّ .. كثرة ذكر المحبوب ..

و كانت عائشة تغار من خديجة .. بعد موتها .. ورغم أنها لم تُدركها ..

لأنها تشعر ان النبي .. صَلَّى اللهُ عليه و سلم .. ما زال على حُبِّها .. رغم أنها قد ماتت!!

و هذا هو أعلى الحبِّ ..

ص: 354

الحُبُّ الذي يستمر بعد وفاة المحبوب، بل يزيد!!

لماذا أحبها أكثر؟!

إذا قال .. صَلَّى الله عليه وسلم:

إني رُزِقْتُ حُبَّهَا ..

تحتم أن نسأل: لماذا أحبها، وظلّ يذكرها ويثني عليها بعد مماتها؟!

الجواب مكنون في الحديث الآتي:

عن عائشة قالت:

«كان رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة

«فيحسن الثناء عليها ..

«فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً .. فقد أبدلك الله خيراً منها؟!

«فغضب حتى اهتز مُقدّم شعره من الغضب ..

ص: 355

ثم قال:

«لا .. والله ما أبدلني الله خيراً منها ..

«أمنتُ إذ كفر الناس ..

«و صدقتني و كذّبي الناس ..

«و واستني في مالها إذ حرمني الناس ..

«و رزقني الله منها اولاداً إذ حرمني اولاد النساء ..

«قالت عائشة: فقلتُ في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً.»!!

اقول .. يُستنبط من قوله:

(والله ما أبدلني الله خيراً منها) ..

ان خديجة أفضل نساء النبي .. صلّى الله عليه و سلم .. على الاطلاق .. حيث ان النبي صلّى الله عليه و سلم .. يُقسّم ما أبدله الله خيراً

منها .. إذن هي خير نسائه، حيث لا احد منهم خيراً منها!!

و يستنبط من قوله:

(أمنتُ إذ كفرَ الناس) ..

ص: 356

أنها أول من آمنَ على الإطلاق .. لم يسبقها رجل ولا امرأة، وأن سبقها هذا إلى الايمان به صلى الله عليه وسلم .. زاده حُباً لها، فإن الشدائد تكشف حقيقة المعادن .. وها هي خديجة تسارع الى تصديقه .. و تسبق الناس جميعاً إلى ذلك ..

لم تتلعثم .. لم تتريث .. لم تتفكر .. ولكن فوراً، وفي قوّة وثبات واستعداد للتضحية بكل ما تملك في سبيل الله، وفي تأييد رسول الله .. زوجها الذي تحبه من قبل ان يُبعث، وازدادت له حُباً بعد أن بُعث!!

لقد كانت خديجة عظيمة الحبِّ لمحمد، قبل أن يُبعث ..

تحبه من كل قلبها، ويملك عليها فؤادها ..

فلما أنبأها أن الله قد بعثه رسولاً ... آمنت به من فورها، لأنها تُحبه حُباً شديداً .. وتعلم بالتجربة طيلة خمس عشرة سنة، أنه صادق، أمين .. لم يكذبها قطّ، وأنه على خُلُق عظيم، لم تسمع ولم تشهد خُلُقاً مثل خُلُقِه ..

ومن لم يكذب على الناس .. مستحيل أن يكذب على الله ..

وَمَنْ كَانَ هَذَا خُلُقَهُ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ..

فآمنت به لفورها يدفعها إلى الايمان سببان ..

الأول .. أنها تُحبه أكثر من حُبّها لنفسها ..

ص: 357

الثاني .. أنها تعلمه علم اليقين .. انها تعلم: مَنْ محمد؟! ما جرّبت عليه كذباً قط، و لا رأّت منه عيباً قطّ .. فمن يكون النبيّ إن لم يكن محمد؟!!

ولذلك صدّقته فوراً، وسجّل لها ذلك النبيّ .. صلّى الله عليه وسلم:

(و صدّقّتي وكذّبي الناس) ..

ويُستنبط من ذلك أن موقفها حين صدّقته أوّل الناس حيث كذّبه الناس .. زاده صلّى الله عليه وسلم .. حُباً لها على حبّ!!

وهكذا تزوجته .. صلّى الله عليه وسلم .. عن حُبّ.

و دليل ذلك قولها له:

«إني قد رَغِبْتُ فيكَ» ..

وتزوجها رسول الله .. صلّى الله عليه وسلم .. وعاشرها خمساً وعشرين سنة، وهو يحبها:

«إني قد رُزِقْتُ حُبّها» ..

زوجان متحابان ..

ص: 358

فلما بعثه الله رسولاً، ازدادت له حُبّاً .

فلما اندفعت إلى الايمان به .. ازداد لها حُبّاً ..

وهكذا مع الأيام والليالي، تبارك ذلك الحب القائم بينهما .. وأثمر وأينع ..

حتى إذا ماتت خديجة، بقي حُبُّها حياً يتجدد مع الأيام ..

«كان رسول الله .. صَلَّى الله عليه وسلم .. لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة .. فيحسن الثناء عليها ..!!»

خيرُ نساءها خديجة؟!!

عن عليٍّ .. رضي الله عنه ..

«عن النبي .. صَلَّى الله عليه وسلم .. قال:

«خيرُ نساءها مريمٌ ..

«و خيرُ نساءها خديجةُ.»»

[أخرجه البخاري]

ص: 359

قالوا: الضمير (الأول) في «نساءها»، يرجع إلى الأمة التي كانت فيها مريم عليها الصلاة والسلام ..
و (الثاني) إلى هذه الأمة .. ولهذا كرر الكلام تنبيهاً على أن حكم كل واحدة منهما غير حكم الأخرى ..
وقيل: المراد نساء الدنيا .. وان الضميرين يرجعان إلى الدنيا .. أي: خير نساء الدنيا ..

أقول .. على القول الأول .. خديجة خير نساء الامة ..

و على القول الثاني .. خديجة خير نساء الدنيا ..

وسواء هذا أو ذاك .. فإنها ارتفعت إلى هذا المقام .. بأنها أول خلق الله أسلم .. لم يسبقها رجل ولا امرأة إلى الاسلام!!

يا رسول الله .. اين أُمي .. خديجة؟!!

عن عائشة .. رضي الله عنها .. قالت:

«ما غرَّتْ على امرأةٍ للنبيِّ .. صلَّى الله عليه وسلم .. ما غرَّتْ على خديجةَ ..

«هلكت قبل أن يتزوَّجني ..

ص: 360

«لما كنتُ اسمعُهُ يذكرُها ..

«وأمره الله أن يُبشِرَها ببيتٍ من قَصَبٍ ..

«وإن كان ليذبحُ الشاةَ فيُهدي في خلائها منها ما يسعُهنَّ.»

[أخرجه البخاري]

«بيتٍ من قَصَبٍ»، يقال: القصب هنا اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف ..

«وقد جاء في رواية عبد الله بن وهب: قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله و ما بيت من قَصَبٍ؟ قال: بيت من لؤلؤة مجوفة ..»

وروى أبو القاسم بن مطير -باسناده- عن فاطمة .. رضي الله تعالى عنها، سيدة نساء العالمين، انها قالت:

«يا رسول الله .. أين أمي خديجة؟

«قال: في بيت من قصب، لا لغوفيه ولا نصب، بين مريم وآسية امرأة فرعون ..

«قالت: يا رسول الله، أمن هذا القصب؟

«قال: لا .. من القصب المنظوم بالدر و اللؤلؤ و الياقوت»!!

وقالوا: كيف بشرها ببيت و أدنى اهل الجنة منزلة من يعطى مسيرة

ص: 361

الف عام في الجنة، كما في حديث ابن عمر عند الترمذي؟!!

قيل: بيت زائد على ما أعده الله لها من ثواب اعمالها ..

وقيل: إنه من باب المشاكلة، لأنها كانت ربة بيت في الاسلام، ولم يكن على وجه الأرض بيت إسلام إلا بيتها حين آمنت، وجزاء الفعل يذكر بلفظ الفعل وإن كان أشرف منه .. كما قيل

«من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة» ..

لم يرد مثله في كونه مسجداً ولا في صنعته، ولكنه قابل البنين بالبنين ..

«كما بنى .. بنى له.»!!

ان الله هو السلام .. وعلى جبريل السلام .. وعليك يا رسول الله السلام .. ورحمة الله وبركاته؟!!

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال:

«أتى جبريل .. النبي .. صلى الله عليه وسلم .. فقال:

ص: 362

«يا رسولَ الله .. هذه خديجةٌ قد أتتْ معها إناءً فيه إدامٌ -أو طعامٌ أو شرابٌ-

» فإذا هي انتكٌ فاقراً عليها السلام ..

«من ربِّها ..

» (و مني).

«و بَشَّرَها بيبيِّ في الجنةِ من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نصبَ.

[أخرجه البخاري]

قالوا: وللنسائي -من رواية أنس-

«قال: قال جبريل للنبي .. صلَّى الله عليه وسلم:

«إن الله يقرئ خديجة السلام ..

» يعني: فأخبرها ..

«فقلت: إن الله هو السلام ..

» (وعلى جبريل السلام ..

«وعليك يا رسول الله السلام .. ورحمة الله وبركاته.»!!

ص: 363

السلامُ عليكِ .. يا أمَّ المؤمنين ..

السلامُ عليكِ .. يا مَنْ سَلِمَ عليكِ .. رَبُّ العالمين ..

السلامُ عليكِ .. يا مَنْ سَلِمَ عليكِ .. جبريلُ الامين ..

السلامُ عليكِ .. ورحمةُ الله وبركاته!!

- تم -

ص: 364

مقدمة...5

هذه .. هي خديجة؟!...9

الخطوط العريضة .. من حياة أم المؤمنين .. 1- ماذا قبل البعثة?...33

الخطوط العريضة .. من حياة ام المؤمنين .. 2- البعثة?...57

نبيان عظيمان .. في زواجهما .. يتشابهان؟!...115

كيف تَمَّ .. الزواج .. المبارك؟!...129

خمس عشرة سنة .. في ظلال حياة .. زوجية سعيدة؟!...145

خديجة عليها السلام .. في أعظم .. لحظة في حياتها؟!...155

ثورة .. قریش .. المضادة؟!...171

عندما قالت خديجة .. لرسول الله .. صلّى الله عليه و سلم:

ص: 365

إنني لأرجو أن تكون .. نبِي هذه الأمة؟!...!177

خديجة .. أول مَنْ تَوْضاً .. و أول مَنْ صَلَّى؟!...!199

صفحة

أهل البيت الكريم .. يؤمنون تباعاً .. بعد خديجة .. عليها السلام!...!207

أمّ المؤمنين .. خديجة .. عليها السلام .. في قلب الاحداث!...!217

خديجة عليها السلام .. تشهد هجرة رُقيّة، مع زوجها عثمان .. إلى الحبشة!...!225

خديجة عليها السلام .. صامدة في المقاطعة و الحصار .. بجوار زوجها العظيم .. صَلَّى الله عليه و سلم!!...!233

هل شهدت .. خديجة عليها السلام، معجزة الاسراء و المعراج!...!263

وفاة .. ابي طالب!!...!303

وفاة .. أم المؤمنين خديجة .. عليها السلام!...!319

شخصية .. خديجة .. عليها السلام؟!...!327

فهرس...!365

ص: 366

ماذا في هذا الكتاب؟!

فيه حياة أول من آمن على الاطلاق!

فيه حياة من قال عنها رسول الله .. صلى الله عليه وسلم: «والله .. ما ابدلني الله خيراً منها .. آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقني إذ كذبتني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد إذ حرمني اولاد النساء»!

وقال: «.. خير نساءها خديجةُ

فيه «حياة أم المؤمنين خديجة»

عليها السلام!!

ص: 367

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩